٥
أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

Looloo
www.dvd4arab.com

نوم الغزلان

قصص قصيرة

محمد حسن الألفي

قبل أن تقرأ

بقلم: صلاح حافظ

تصور هذا الخبر منشورًا فى باب الحوادث فى إحدى صحفنا اليومية:

«عملية شراء زوجة: أجبر مالك إحدى العمارات أحد السكان عنده على تطليق زوجته، لكى يتزوج منها هو!

باع المالك الشقة للساكن فى مقابل أقساط حرر بها شيكات على بياض. ثم هدده بأن يملأ الشيكات بمبالغ تتجاوز المليون جنيه، ويسجنه بها، ما لم يطلق زوجته.

وبعد الطلاق تزوج صاحب العمارة من الزوجة المطلقة، التى يكبرها بأربعين سنة.

ولم تتضح تفاصيل القصة إلا بعد سنوات، عندما ضاقت الزوجة بالمالك العجوز. وشرعت تطلب الطلاق منه.

فقد ظهر أنه، قبل أن يتزوج منها، أخذ عليها هى أيضًا شيكات على بياض، لكى يحبسها إذا طلبت الطلاق.

وتقوم النيابة بالتحقيق الآن مع أطراف القضية، بما فيهم الزوج السابق».

انتهى الخبر.

وهو بصيغته الحالية صالح جدًا للنشر فى صفحات الحوادث فى أية صحيفة يومية معاصرة.

لكنه عند محمد حسن الألفى صالح جدًا لصياغة عمل أدبى، قصصى، ممتع، يسميه «نوم العازب».

وهذا هو الجديد عند محمد حسن الألفى.

فأدب القصة عنده هو أدب الإبلاغ عما يفعل الإنسان المعاصر فى أيامنا المعاصرة. وإذا كان نجيب محفوظ قد سجل بأدبه حياة عصر مضى، فإن هذا الألفى الشاب يسجل حياة الأيام المعاصرة، ومفارقاتها، وشخصياتها.. بأسلوب يقنعنا بأن كل ما جرى فى كل قصة كتبها قد حدث بالفعل.

وموضوع الأدب، كما نعرف، هو الإنسان.

لكن هذا الإنسان عند الألفى هو إنسان اليوم، فى مجتمع اليوم، لا الإنسان على إطلاقه.

صحيح أن فى بعض قصصه تصويرًا للإنسان على إطلاقه. مثل المرأة المتسلطة والزوج الخاضع فى قصة «زهرة الحب». ومثل المرأة المتقلبة التى تفقد الرغبة والحب عندما يفقد الرجل ثروته ووجاهته فى قصة «الممل».

لكن ما يتألق فيه الألفى ليس هذا الطراز من القصص. وهى قليلة عنده على أية حال. إنما يتألق حقًا فى القصص التى يعرض فيها واقع الحال المعاصر فى المجتمع المعاصر، وما طرأ عليه من ظواهر جديدة على الناس، يعيشونها ويشعرون بها، ولكن لا يملكون تجسيدها والتعبير عنها كما يفعل الألفى.

وهذا الطراز من الأدب «الواقعى جدًا» ليس مألوفًا بعد فى المكتبة العربية. لأنه يحتاج إلى كاتب يجمع ما بين حس الأديب ويقظة الصحفى. ما بين قدرة الأديب على هضم الحياة وإفراز رحيقها، وقدرة الصحفى على متابعة وتسجيل كل جديد يحدث فيها.

ومن حسن حظ الألفى فى اعتقادى أنه هذا الرجل.

فهو مفتون بعالم الصحافة وعالم الأدب معًا، وبالتساوى وما من

موضوع صحفى يكتبه إلا ويسيطر عليه قلم القصاص. وما من قصة أدبية يصوغها إلا ويقتحمها الصحفى الحريص على تسجيل ما يرى كل يوم.

وقد يكون للنقاد الكلاسيكيين رأى فى الطبيعة المزدوجة لقصص الألفى. فيراها نقاد الصحافة أدبًا. ويراها نقاد الأدب صحافة. ولا يتفقون إلا على طرد الألفى من الساحتين معًا.

لكننى لحسن الحظ لست ناقدًا، لا فى عالم الصحافة ولا فى عالم الأدب. ولا تكبل استمتاعى أية قيود.

وباعتبارى قارئًا لا أكثر، فإننى أشعر بالحاجة إلى مزيد من هذا الأدب القصصى الجديد. الذى يصور الواقع اليومى المعاصر، ثيصور بذلك الإنسان فى ظروفه، ويصور بذلك الإنسان عامة!

ولأننى مجرد قارئ، لا ناقد ولا مؤرخ، فإن هذا الاتجاه القصصى الذى اندفع إليه محمد حسن الألفى يروق لى كثيرًا. وأتمنى ألا يعدل عنه قبل أن يستنفد جهده فيه. وقبل أن تسايره فيه أقلام جديدة، شابة مثله، حتى لا تحرم المكتبة العربية من منابع أخرى تزودها بأعمال مشابهة.

فهذا الطراز من القصص الجديد حرام أن يبدأ وينتهى بالألفى وحده، دون أن يشق طريقًا لأقلام أخرى تواصل مهمته، وتضيف به إلى نهر الأدب العربى رافدًا جديدًا غير مألوف..

رافدًا شابًا، يعبر الحواجز، ويتدفق على حريته، شديد الصخب والتمرد والجانبية!

صلاح حافظ

★ كتب هذه المقدمة الكاتب الكبير الراحل الأستاذ صلاح حافظ قبل أن يداهمه مرض الموت..

أول الشهر

أول الشهر

عندما اتخذ محمود أبو الذوق قراره المفاجئ، وهو واقف أمام خزينة الصراف يوم ٣٠ فى الشهر، أحس كأنما ضبط شخصًا آخر يحتله، فقد كان القرار جريئًا، يحسب فى تاريخه الزوجى من التحولات الجذرية الداهمة، التى ستقلب الموازين فى علاقته بكل القوى المناوئة، فى بيته، وفى بيت أهلها!

قرر أبو الذوق أن يأخذ المرتب لنفسه هذا الشهر، سوف ينفق الـ ١٨٠ جنيهًا دفعة واحدة فى يوم واحد بلا تردد، ولتضرب فتحية رأسها فى أتخن حائط.

قال فى نفسه إنه يوزع المرتب على الآخرين منذ ٢٥ سنة، فماذا لو خص به مزاجه اليوم؟ ماذا لو تحدى زوجته وعياله والدائنين؟ ماذا لو قال مرة واحدة «لا». ثم إنه صبر عليها طويلًا، فهو يحبها، والمصيبة أنها تعلم أنه كذلك، وأنه لا يستطيع أن يعيش بدون نقارها، وأنها تستغل ذلك بطريقة لا أخلاقية، ففيها الكثير من صفات البقال الجشع.

صبر عليها صبرًا لا يليق بالرجل؛ فلذلك اتخذ قراره بالتمرد والفجور. ولن يعود إليها. سيصرف النقود كلها ولن يعود إليها. ولير إذن كيف سيكون رد فعلها. هل تصرخ. هل تبكى. هل تلم الناس عليه.. أم تترك البيت وتقفل إلى بيت أهلها. ياليت!

لكن الرجولة الحقة ليست فى «ارتكاب» هذه الشجاعة، ثم الفرار منها. الرجولة هى أن يعود إلى البيت رابط الجأش، فاجر الوجدان، سليم البنيان، وقد بدد عرق الشهر فى يوم أو بعض يوم.

وهذا ما كان.

حين صرف مرتبه - يعمل مهندسًا بشركة مقاولات ناجحة - كانت الساعة حوالى الثانية عشرة ظهرًا تقريبًا.

وبعد أن صرفه استأذن من المهندس «أبو العريف» فى ساعتين «لقضاء بعض الحاجات العائلية».

أول مغامرة كانت دخوله بجسارة إلى محل كوافير محترم. السنات فوق والرجال تحت. من جسارته صعد إلى فوق!

لكن أنزلوه ..!

من زمان لم يغسل شعره بالشامبو. من ٢٠ سنة.

سلم رأسه إلى أنامل بنت نصف جميلة. نصف جربانه.

دعكت الرأس بقوة وبسرعة، وطوقت محيط الرأس بحرارة من أصابعها، اختلطت بحرارة داخلية انبعثت من أعماقه. مع الدعك والقوة أحس كأنها تريد أن توقظه أو.. تثيره. استسلم للإحساس اللذيذ بأن أصابع غير أصابع الزوجة

تمضى فى رأسه وتضرب بعمق فى منطقة الإحساس المركز.

تغيير أهاج فيه سنتيمترًا واحدًا من النكورة.

فوجئ وخجل إذ نبهته البنت بعبارة وظيفية محفوظة إلى انتهاء عملية غسل الرأس، وأن المفروض أن يخلى المقعد أمام الحوض الذى انكفأت إليه رأسه وامتلأت به عيناه، حتى بصرتا بأمواج الماء محملة برغاوى الشامبو تغمر الحوض ثم تنداح إلى عين ماصة!

حين جلس إلى المرآة العالية العريضة الشاملة رأى شعره مدعوكًا مغسولًا. لم يره كذلك من زمان. ربما رآه منكوشًا، ومخلوطًا بعفار وغبار وجير! لكنه اليوم، اللحظة، يراه مغسولًا لامعًا، وفى الوجنتين نضارة.

آخر مرة فعلتها زوجته - حسب قوة ذاكرته حاليًا - كانت ثالث يوم الزفاف. يومها غسلت له ظهره وطقطقت له جذور شعره بهمة وإقبال، ثم روت مسامه الخشنة العطشى بكومة من الكريم الزبدى الأبيض، وقد جعلت تدعك وتوسع فى دائرة الدعك فى موجات متلاحقة، ردته إليها أنامل البنت عند حوض الغسيل!

لم يشعر بالمقص يجول ويصول ويصدر ذلك الصوت الرتيب، فى لغة عالمية واحدة، يقلم ويشذب ويسوى، ثم لم يشعر بالمشوار يزأر وينفخ ويلسع أطراف أذنيه لسعًا أقرب

إلى قرص الزمن له. وشيئًا فشيئًا استرد صورته القديمة على المرآة. رأى رأسًا مصفف الشعر، خاليًا من الصداع والكدمات النفسية، وفى الوجه ضوء وبريق، وحول الفم ابتسام ورضا.

برفق ضرب الحلاق على ظهر المقعد أن انهض يا أستاذ، بعد أن عرض له قفاه فى مرآة صغيرة مربعة ليتأكد ويطمئن إلى استواء القفا.

لما نهض ونفض بقايا الشعر وقصاصاته عن ساحة العمليات وجد أكثر من يد تريد البقشيش. تنتظره دون أن تمتد. وهكذا نفح الحلاق ١٠ جنيهات والبنت عند الحوض جنيهًا والولد الذى سوى له قميصه بعد الحلاقة ٥٠ قرشًا.. لا.. لا.. جنيهًا.. فقد احمر وجهه حين رمق فى عينى الولد خيط احتقار.

خرج يملؤه إحساس بأنه نظيف وجميل وفى جيبه نقود. كان قد بلغ شارع «فؤاد». لمح محلًا يبيع الدجاج على الطريقة الأمريكية، فقصد إليه بلا تردد. وجد نفسه فى مدخل صالة أنيقة صفت فيها المناضد الخشبية العسلية اللامعة، وتحتها أرض لامعة، ومن فوقها سقف تدلت منه الأنوار والخضرة والبالونات الملونة.

جو يشرح القلب ويحرض على الأكل!

لاحظ أنه واقف بلا داع. فمضى وجلس إلى منضدة عليها قائمة المأكولات. فرايد تشكن وعرفناها فما هى الفرنش فرايز

إذن؟ اكتشف ببساطة - وضحك بعدها عميقًا - أنها البطاطس الصوابع المحمرة!

ساخنة متبلة. الفراخ ساخنة شهية.

لذيذة.. البطاطس الفرنش لذيذة!

أكل حتى شبع، أكل دجاجة كاملة، إلى جانب السلاطات والحلو.

- كم الحساب؟

- ٢٥ جنيهًا.

- إليك ٢٧!

- ألف شكر ياافندم!

- أبدًا.. إيه يعنى.. دى حاجة بسيطة.

- كلك ذوق!

- تعيش! ربنا يخليك! عمومًا.. أنا أبو الذوق.

- طبعًا.. طبعًا يا افندم.. ما هو باين!!

وبدا كأنه لا يعرف كيف يخرج من بركة «الشكر» هذه! المهم خرج.

وهذا حذاء جلد طبيعى لامع آخر موضة، ثمنه ٥٠ جنيهًا.. أيلبس حذاء ثمنه ٥٠ جنيهًا. أينتحر؟! انتحر. اشتراه ولبسه

على الفور. أما القديم الكالح ؛ فألقى به فى جوف صندوق القمامة القائم فى بلادة على الرصيف أمام المحل الجميل.

كم يبقى معى؟

البركة كلها. لا تحسب. ألم يكفك الحساب طيلة السنوات الماضية. ظللت تحسبها طوال ربع قرن. لا تحسبها الآن. خذ من الجيب وأنفق. سترى أنها بئر لا تنضب بفضل الله. سأدخل السينما. المهم أن يكون الفيلم مسرة للقلب والعصب ؛ فهذا يومى. والله لأعتصرنه بهجة وأفراحًا وليكن بعدها يوم القيامة. نعم ليكن. فماذا أخذت مقابل الحرص والحذر وتدبيق القرش فوق القرش. رأتنى خانعًا خاضعًا مطيعًا كالأرض الذلول فحرثتنى همًا وغمًا وامتطتنى ومعها أولادها ومن فوقهم المهندس «أبو العريف». ولقد فعلوا جميعًا. فعلوا كل شىء. لم يبق إلا أن يبولوا على ظهرى!.. آه.. كم أتمنى الموت والراحة؟!

وضبط نفسه تتحول مشاعره إلى ظلمة، فهتف بحنق يزجره أن يقبض على لحظات السعادة الصافية وأن يذهب العالم كله إلى الخليج!

شاهد فيلم «البيه البواب» لـ أحمد زكى.

أعجبه جدًا أن يتحول البواب المنقوع فى محلول الجهل المركز إلى رجل أعمال خطير! أعجبته أكثر تلك الجرأة على

القاهرة. وتلك الروح الجسور التى آلت على نفسها أن تتعلم الوساخات بأسرع مما تتعلم الفضائل؛ فالتعامل فى العاصمة يحتاج بضراوة للنوع الأول - غالبًا.

ضحك حتى اهتز على المقلب الذى فعلته الممثلة صفية العمرى بالبواب. شبهها بزوجته.

وبعد أن شبهها بزوجته، تمنى لو يعثر بطريقه على مثلها، ولم يمانع أبدًا فى أن يتعرض لمقلب من امرأة بضة رخصة، وقال فى نفسه إنه مستعد لامرأة من هذا النوع، ولمقالبها بروح رياضية. محتاج الآن لامرأة!

احتياج من النوع الذى فجر الاختراعات والبدائل.

كان سمع من زملاء له أن شارع جامعة الدول العربية صار يشبه بعض الشوارع فى العواصم الأوربية والأمريكية. صار يشبه مثلًا شارع ١٤ فى واشنطن وحى مونمارتر فى باريس، حيث تبيع الفتيات الهوى والكرامة.

استقل سيارة أجرة، وكاد يجزل للسائق لولا أن رد إليه طبعه الحريص: فأمسك!

ووقف بالشارع يسأل نفسه: من أين أبدأ؟

وأجاب: من أول امرأة تقابلنى.

مسح الشارع كله بنظرات متتالية منقبة. صاح كأنه وجد بغيته.

ـ يا ألطاف الله!

فى مثل اكتمال البدر. فى مثل اكتمال الرغبة. فى مثل اكتمال المتعة. بها أناقة وغنج. الصورة التى تمناها دون أن يراها. الصورة التى أرادها من زوجته فى عز الظلمة والحرث.

لكن كيف السبيل إلى هذا الحصن؟

أى حصن ومعك النقود أيها الكهل الخانع!

إن معك مرتب أسرة بأكملها لـ ٣٠ يومًا، وهو خليق بأن يفتح لك فراديس امرأة واحدة.

اقترب منها وفى عينيه رجاء وخجل، أما العقل فطارت منه المراجعات. وعثرت به نظرتها إذ ترسل البصر فى المكان. وفى ثوان أدركت رسالته الخفية. فشجعته بحركة من الخصر. اتبعتها بساق مشدودة وأخرى مكسورة: عندئذ طار صوابه. دنا فمشى فجاروته فلطمه منها عطر ضمه وهو بعد يحاذيها. رباه!.. إنى أمشى مع غير زوجتى. زلزال ضخم بقوة ٦,٧ بمقياس ريختر. إنى أخون، ولكن لا سبيل إلى التراجع. انهيارك سيقودك إلى حياة الضعة واللاكرامة واستجداء الفراش! هذه امرأة مما حلمت واشتهيت. هذه امرأة تبيع المتعة صافية بلا مساومات!

أصغى إليها تحدثه بوجه حلو:

ـ إذا كانت عندك شقة فالأجرة ٥٠ جنيهًا.. إذا كان عندى تبقى الأجرة مضاعفة. مفهوم؟!

ـ كم يعنى؟ ميت جنيه؟

ـ زعلان على فلوس وأنا مش زعلانه على لحمى وعرضى!

ضبط نفسه يتراجع.. وضبط الجبان الحذر فيه يشق البيضة ويخرج. ضربه على رأسه وزجره «ادخل جحرك ياجبان.» ثم رفع رأسه إليها بكرامة وقال:

ـ ياللا بينا.. ياللا!

وغابا فى سيارة أجرة، ولاحظ أنها تعرف السائق، فقد دار بينهما حوار خاطف بالشفرة.

وغاب عندها ساعتين، خرج بعدها موفور الكرامة، يتيه بقوة كانت محبوسة فى قمقم الذل والخناق ومشاكل العيال.

هز رأسه عجبًا من نفسه، وإعجابًا بالمهارة العلمية العالية للفتاة وهتف بصوت قوى: بنت الجنية. تبدو لى كأنها مدربة على وظيفة ورثتها أمًا عن أم!

ـ كم الساعة يافندى؟

سأله عابر سبيل رده إلى الضوضاء:

ـ تسعة ونصف.. يانهار أسود!

سأله العابر متعاطفًا:

ـ فيه حاجة أساعدك.

بحزم:

ـ مفيش.

وبخوف قال فى نفسه وقد اقترب من مرحلة لطم الخدين: ماذا جرى؟

راحت السكرة وجاءت الفكرة؟ أحمد يامحمود يابو الذوق كله! لم تخاف! اقمعها. اضربها. لست جبانًا بعد الآن. ألزمها حدودها وادفع بها إلى النيل تشرب ماءه كله!

ترى كم معى الآن؟.. ١٣ جنيهًا للحلاق وأتباعه، ثم الفراخ الأمريكانى والسينما والمومس الرائعة و... يبقى ما يكفى لشراء بدلة جينز!

ودخل أقرب محل، ثم خرج منه ببنطلون فقط؛ فالمبلغ لا يكفى لبدلة كاملة. ارتدى البنطلون المحزق ومضى فى الشارع كأنه كاوبوى عريق فى رعاية البقر!

الآن.. الشعر مصفف.

الملابس جينز أصلى.

الفحولة مختبرة.

المعدة ممتلئة.

روح الجسارة ترعى فيه كالنار.

لا بأس إذن من القتال.. ولا قتال إلا فى المنزل.. حيث المعركة لم تحسم بعد لربع قرن.

شد قامته وسحب الهواء إلى صدره.. وضغط الجرس وتهيأ لثورتها ببركان حى متقد.

لما رأته جرت على البنطلون الجينز بسرعة مقصودة ثم هتفت فى لهجة استجواب:

ـ قبضت يامحمود؟

فقال فى انكسار:

ـ قبضت يافتحية!!

ـ طب.. لايمنى يا خويا.

(١٩٩١)

حفلة موت

(١)

بسرعة، وفى حياء عابر، ضمت السيدة طرفى قميصها، ورفعت إلى وجه الطبيب عينين متسائلتين، تترقبان نبأ حزينًا.

رفع الطبيب السماعة عن أذنيه، فسقطت فى استرخاء حول عنقه.

قبل أن يجلس إلى مكتبه، عاجلته السيدة تسأله:

ـ كم يبقى من العمر؟

لم يرحمها الطبيب.. أطبق شفتيه طويلًا.. وحتى لو فتحهما ما طاوعه لسانه الذى التصق بسقف حلقه جزعًا.

سألته فى صوت هادئ مستسلم:

ـ كم يبقى من العمر يادكتور؟.. أرجوك أنا لا أخشاه.

بصعوبة ألقى كلمته.

ـ ربما شهر!

ـ ليس أكثر؟.. ليس أقل؟..

ـ الله وحده أعلم..

(٢)

فات من الشهر ٢٥ يومًا.

هى وزوجها فى البيت، أمام التليفزيون. الأولاد الثلاثة فى حجرتهم.

التصق كتفها بكتفه.. ورفعت إليه عينين متأملتين، تحتويان ملامح وجهه، لتطبع فى ذاكرتها أعمق صورة ممكنة، تأخذها معها.

قبل أن ينطق بحرف.. والدموع تلمع فى عينيه.. قالت له.

ـ لنجعلها نهاية سعيدة.

اضطربت نظرته، وفر الحزن، وحلت دهشة:

ـ ما وجه السعادة هنا؟

ـ الأمر مقضى ولا حل له، ولا تدبير.. سأواجه الموت. لعله الآن على بعد ثانية واحدة منى، لنجعلها إذن نهاية سعيدة!

ـ نهاية لحياة لم يمض منها سوى ٣٥ عامًا؟

ـ حياتى كلها ٣٥ عامًا.. لم تكتب أطول من ذلك، لقد استوفيت حقى كاملًا.

ـ وماذا تريدين أن أصنع؟

ـ فقط.. ابتسم. ابتسم من قلبك. أنت طبيب وتعرف أن الإنسان مشروع ميت: أليست هذه كلمتك..؟

ـ أمازلت تذكرين؟

ـ أنكر اللحظة التى عدت إلىّ فيها مهمومًا بعد أن دخلت غرفة العمليات لأول مرة فى حياتك لتخدر مريضًا..

ـ كنا فى سنوات حبنا وزواجنا الأولى..

ـ لم يدر فى بالنا أن الطريق قصير إلى هذا الحد الباتر..

ـ مقدور.. هيا.. ابتسم.

ـ ألديك قدرة على الابتسام؟

ـ لدى قدرة على الموت.. ترى ما هو..؟ كيف وجهه؟ ماذا يحدث فيه؟.. أى مشاعر ستمر بى وأنا أقبض؟

ـ كفى.. كفى.

ـ لا تصرخ.. دعنى أفلسف الكارثة، أم تراك تفضل أن تداهمنى.. تداهمك.

ـ إنك تعذبيننى.

ـ أريدك أن تتذكر دائمًا أن زوجتك كانت شجاعة.

ـ لن يجدينى أن تموتى شجاعة أو جبانة.. يجدينى فقط أن تعيشى لى ولأولادنا.

أدركت أنه يائس لحد الموت.. نهضت وأدارت الكاسيت على موسيقى فرحانة.. رقصت على إيقاعها فبان ضعفها،

وتهالكها. أشفق عليها وأخذ بيدها وأقعدها، ومضى من فوره إلى المطبخ، أعد كوب ليمون ثم اقترب منها.

اقتنصت لحظة استسلامه وإشفاقه.. وقالت له:

- عدنى أن نجعلها نهاية سعيدة.

بصعوبة قال:

- أعدك!

- إذن.. إذا قدر لى أن أحيا حتى الغد.. فسأقيم حفلًا بسيطًا هادئًا.. ندعوا إليه أصدقاءنا. وسأعد لهم طعامًا يحبونه!

- أى طعام.. أى حفل؟ لواحدة ستموت؟

- اتفقنا ألا نقول إنه موت. إنه سفر سعيد فحسب!

- أنت عنيدة.. طول عمرك عنيدة..

- تحمل عنادى الأخير، إنه فقط عنادى الأخير.

دخلته الكلمة فقصمت مقاومته، وبعثت فى عينيه بلمعة وقال:

- ليكن حفلًا.. وطعامًا وصحبة طيبة.

- لنبدأ الآن.. إليك التليفون.. اتصل بهم جميعًا.. أصحابى وأصحابك.

ورفع السماعة. ومد إصبعه على الرقم الأول لكنه احتج غاضبًا..

- وماذا تريدين أن أقول لهم؟.. كيف بالله أبدأ الكلام.

- قل لهم الحقيقة!

- الحقيقة؟

- نعم!

- الحقيقة؟.. تريدين أن أقول لهم إننى أتشرف بدعوتهم لحفل وفاة زوجتى!

- ليس بالضبط.

- إذن ماذا أقول؟

- قل لهم إننا أعددنا حفلًا ندعوهم إليه قبل سفرى الأخير.. وسيفهمون.

- أعتقد أننا سنصبح مضغة المجالس إذا فعلنا.

- إنهم أصدقاء لنا مخلصون.

- مخلصون أمامنا.. لا ندرى ماذا يقولون حين تخلو مجالسهم منّا.

ضاق صدرها.. فهتفت به:

- أرجوك.. أرجوك نفذ رغبتى.. نفذها يا أخى!

- حاضر .. حاضر !

وأدار الرقم الأول . كان لصديقتها الأثيرة .. قال لها بلسان متعثر .

- أنا وزوجتى ندعوك وزوجك غدًا لحفل بسيط .

جاء صوت الصديقة من بعيد :

- مناسبة خاصة؟.. أم عيد ميلاد؟

- تريد صاحبتك أن تراك وكل أصدقائها قبل أن ترحل !

فزع الصوت البعيد .

- ترحل أين؟

- ترحل .. ترحل .. أقصد .. أقصد ..

زجرته زوجته وأسعفته بالكلمة .

- قل لها : تموت .. تموت !

عاد إلى السماعة وقال :

- أقصد تموت .. فهى تعتقد أنها ستموت غدًا !

لم يأت إليه صوت .. حل فى المسافة بينهما صمت طويل خائف مهيب .. فاضطر الزوج أن يسأل .

- هل أنت هناك؟

- هل أنت هناك؟

- نعم .. عن إذنك .

وتلقى صوت سماعتها تغلق فى أذنه .. أسرعت الزوجة وأمسكت بالتليفون .. وبعد ساعة واحدة كانت قد أتمت المهمة بنجاح .

(٣)

السابعة من مساء اليوم التالى .. الجو صيفى .. والأصدقاء والصديقات .. وعدد من الأقارب ..

ارتدت الزوجة فستانًا أبيض جميلًا .. وجلست وسطهم ، تعامل ضيوفها بأناقة ورعاية .. وكأن كلا منهم هو ضيفها الخاص جدًا .. أشادوا جميعًا بروحها المعنوية .. ولم ينس اثنان اقترب مقعداهما أن يتبادلا الحوار التالى .

- سيدة مجنونة .

- زوجها أكثر !

- أو أنه رجل ضعيف الشخصية . البنج أثر عليه !

- إننا نعرفه طوال عمرنا . لا جديد ..

- ثم ما أدراها أنها ستموت غدًا .

- يقول صاحبك إن إحساسها قوى .. وإن الطبيب حدد لها مدة تقريبية .

- لكن الأعمار بيد الله.

- الناس فقدت عقلها.

ودعتهم إلى تناول الطعام.. فتردد البعض وأقبل البعض الآخر..

والواقع أنهم جميعًا جاءوا إكرامًا لصداقة قديمة أو طارئة أو مصلحة ربطتهم بها.. وجاءوا لقضاء أمسية جميلة معتقدين أنها نكتة أو حيلة لتجميعهم!

وقبل أن يأتوا.. كانت وزوجها طبيب التخدير قد وضعا أقراصًا منومة لأطفالهما الثلاثة.. وحملاهم إلى فراشهم وغطّياهم وقبّلاهم.

وحوالى الساعة العاشرة.. استأذنت من ضيوفها وقد ظللت وجهها سحابة حزن كثيفة؛ فأدرك الأصدقاء أنها كانت جادة وأنه لا مجال مطلقًا لليلة عابثة.

دخلت حجرتها وهى تقول:

- أشعر بتعب.. عن إذنكم.

ووقف الزوج مهلوعًا.. لا يعرف ماذا يفعل.. هل هى داخلة الآن لتموت.. أم لترتاح.. هل يدعو الأصدقاء للبقاء.. أم يدعوهم للانصراف لينفرد بها.. ماذا يفعل بالضبط؟.. إنه لا يعرف.

هبوا جميعًا.. وقرروا أن ينصرفوا لكى ترتاح الزوجة..

كانت هى بالفعل.. قد استقرت على الفراش..

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل.. مضت ٤ ساعات وهى نائمة..

أيقظها زوجها الطبيب.. فتحت عينيها ببطء.

وقالت:

- أنقذنى!

- أنقذك!.. مم؟..

- لقد ابتلعت شريطين من الأقراص..

- شريطين؟

- أنقذنى.. إنى أتألم.. اقض علىّ.. أرجوك اقض علىّ.. إنى أموت.. ببطء شديد.. أطلق رصاصة. أطلق رصاصة.

- مستحيل.. مستحيل.. لماذا فعلت هذا؟ لماذا خدعتنى؟.. كان اتفاقنا أن تكون نهاية سعيدة!.. ألم نقل إنها نهاية سعيدة.

- هى كذلك.. لو أنقذتنى وقتلتنى!

- لن أسامح نفسى.

- سأسامحك.. أنا نفسك.

- مستحيل.. كيف أقتلك بيدى أنا.

ـ إن الموت يقتلنى بقسوة.. اقتلنى أنت.. ستكون رحيمًا بى.. أرحم من قبضته.

ـ لماذا.. لماذا.. هل هانت عليك الحياة؟.. حياتنا.. لقد طاوعتك. رضخت لعنادك.. رضخت لرغبتك.. وكنت موقنًا أنها ليست ليلتنا الأخيرة.. ليست الساعة الأخيرة فى عمرك.

ـ سامحنى.. لقد اخترت أن أحددها بنفسى، اخترت أن أرتاح من عذاب الانتظار.. أقض علىّ يا حبيبى..

وتعلقت بعنقه.. وغمرته بالقبلات..

ونظر إلى وجهها فرأى فيه عذابا عظيمًا..

رآها تموت.. تخرج منها الحياة نسمة.. نسمة، ويدخل فيها الموت قطرة قطرة.

نسى أنه زوجها.

تذكر أنه طبيب..

تذكر أنه طبيب تخدير..

لابد أن يريح المريض.. الذى يموت بصعوبة. فليجعل موتها أسهل. وجاء بحقنتى مورفين.

حقنها. أسبلت عينيها.. وشفتاها على جبينه تهمس:

ـ أشكرك ياحبيبى.. لم تكن هناك أقراص.. هذا هو الحل الوحيد لتلحق بى.. سامحنى!

الدكتاتور

الدكتاتور

أنصتت إلىّ باهتمام لا أستحقه، وهى نفسها تعرف جيدًا أننى لا أستحقه، ولكنها مع ذلك مضت تنصت، ثم جاملتنى بقبلة جافة على خدى الأيمن، وأخذتنى من يدى اليمنى وجرتنى بعيدًا عن نافورة الحزن التى أقمتها فى منتصفى وجعلت أدور حولها. لا أدرى إلى أين أخذتنى ولا ماذا فعلت بى، لكن فى اليوم الثانى وجدتنى معها تحت سقف واحد على فراش واحد وهى تضاحكنى وتقول إن الحياة أقصر من التفتيش فى معناها. رحت أتفلسف وأقول إن الحياة بلا معنى وإننى لا أفهم لها سرًا وظلت هى تقنعنى لساعات بأن الحياة هى الحياة وأنها لا تحتاج إلى معنى بل تحتاج إلى واحد يحبها ويعيشها ويعطيها حتى تستنفذه. وظللت أطارد أفكارها وأطردها بالتعالى وادعاء علمى العميق بأن الحياة عبث، والعجيب أننى فى داخلى أعجبت بفلسفتها بقدر ما كرهت هى فلسفتى وإن لم تكره شخصى الذى - أنا نفسى - أكرهه.

فجأة هبت واقفة وسحبتنى وقالت لى: عندى فكرة، وكنت أعرف أفكارها السريعة المجنونة، لذلك اعترضت وقلت إننى غير مستعد لمغادرة هذا الفراش إلّا إلى القبر.. قالت: هذه هى بالضبط فكرتى ولعلها المرة الوحيدة التى تلتقى فيها أفكارنا فى لحظة واحدة.

. فازت هذه القصة فى مسابقة إحسان عبد القدوس للرواية والقصة القصيرة لعام ١٩٩٠.

قلت لها: هات ما عندك..

لم تتكلم وإنما فتحت دولاب ملابسها وأخرجت الكثير منها ومضت تجرب الفستان بعد الآخر حتى مضت على ذلك ساعتان وأنا أراقبها تدخل فى فستان لتخرج منه ، وروحى بلغت أنفى وأنا أكظم غضبى وبعد أن جربت آخر فستان نظرت إلىّ وهى تضحك فى طفولة كرهتها منها فى تلك اللحظة، وسألتنى:

ـ ما رأيك؟

نظرت إليها بذهول وقلت: فيم؟

قالت: فى هذه الفكرة؟

قلت: أية فكرة؟

قالت فى دهشة :ألم تر الفكرة؟

قلت :أين؟.. أيرى المرء أفكارًا ؟!

قالت: هنا.. تراها !

قلت: متى؟

قالت: منذ لحظات..

قلت: أية فكرة؟

قالت: فكرة الـ.. العبث..

قلت: وما معناها..

قالت: لا معنى لها..

قلت: وهل أضيع وقتى فى لا معنى !؟

قالت: وما جدوى أن تضيعه فى معنى..

لم أطق هذا التبرير ووجدتنى أخرج من الفراش هائجًا فلطمتها وخرجت هاربًا من غرفة النوم وأنا أدخل بصعوبة فى ملابسى وبعد لحظات كنت أتقبل النسمات الأولى من ليلة باردة من ليالى القاهرة فى نوفمبر !.. سرت فى الشارع الخالى الهادئ قرب النيل وأنا أفكر فى نفسى وظللت أفكر حوالى الساعة حتى انتفخ صدرى بهواء ساخن جعلنى أنشر ذراعى التماسًا لخلاص عنيد.. وجدتنى اقترب من صفحة النيل أتأمل مياهه وأتخيلنى فى هذه المياه أنعم بملمسها البارد المدهش.

قلت لابد إن هذه المياه الباردة المدهشة سوف تصفع صدرى الساخن وعقلى الذى يفور بالكلام الفارغ وتردنى إلى حيث بقية خلق الله.. إنسانًا عاقلًا سويًا.

وبالفعل تخيلتنى ألمس المياه بيدى ثم بوجهى ثم أغمس وجهى ورأسى حتى عنقى حتى صدرى حتى خصرى حتى نهاية قدمى.. رأيتنى انتجر ورأيت صفحة الماء المضطربة تضيق حلقاتها على آخر أثر لى ثم تستقيم وكأننى لم أكن حجرًا ألقى بنفسه فيها.

وبالفعل انتحرت ثم قررت أن أوقف حادث الانتحار ، وأن أصعد سطح مياه النيل وكنت أتصور أن أناسًا كثيرين سوف

يكونون بانتظارى ، وبالفعل وجدت أناسًا كثيرين فى انتظارى ، ولكنهم لا ينظرون إلىّ بل ينظرون إلى مياه النيل ولكنهم لا يروننى على الإطلاق وكأننى ما انتحرت وكأننى ما خرجت من الانتحار بقدرتى الغريبة .

* * *

خرجت مبتلًا بأفكارى وركبت أول أوتوبيس صادفنى . لم أكن على محطة ولكنه وقف لى . هكذا وحده وقف لى .. وجلست بجوار السائق وتحدثت معه بضع كلمات وافق على أثرها أن أقود السيارة بدلًا منه وأن يجلس هو فى مقعد الركاب . وجدتنى أقود السيارة بمتعة رائعة . وقفت على جميع المحطات وانتظرت كل الناس ليركبوا ولم أطلب إلى الكمسارى أن يأخذ نقودًا من أحد ، كما أن السائق نفسه غط فى نوم عميق .. وظللت أقطع شوارع وراء شوارع وميادين وراء ميادين وأحياء وراء أحياء ، حتى عبرت القاهرة والجيزة والناس فرحانين ، مبسوطين ، لم يسألنى أحد إلى أين أنا ذاهب ولا متى سأصل ، ولا ماذا أنا فاعل ، ظللت أقطع أميالًا وراء أميال حتى وجدتنى خارج كل الأزمان ، ووجدتنى أقف بالسيارة فى صحراء مترامية بلا حد ولا حدود .. نزلت وشعور بالامتلاك يكتسح جسمى ، رفعت رأسى ، نظراتى لامعة ، واثقة .. من الباب الخلفى نزل الشعب ـ أقصد الركّاب وتحلقوا حولى ، وخيم فوقنا صمت طويل طويل تبادلنا خلاله كلمات كثيرة دون أن تفتح الأفواه . فى اليوم التالى صحونا من النوم فى آخر النهار وتبادلنا

التحية وقررنا أن نفعل شيئًا نفسر به قدومنا إلى هذه الصحراء التى لا حد لها ولا حدود .. وكان الشىء أن نقيم تمثالًا لأحدنا وأن يتم اختيار « الأحدنا » هذا بالصدفة البحتة ولا تعرف كيف جعلتهم يختاروننى أنا لإقامة تمثال لى .. وهكذا وجدت فى أحدهم مثالًا محترفًا .. وهكذا وقفت فى منتصف تلك البقعة من الرمل لا أتحرك ولا أتنفس . وبقيت على حالى يومًا والثانى والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ، وفى آخر ساعة من ساعات ذلك اليوم العاشر كان المثال قد انتهى من صنعى ومن إقامة قاعدة عملاقة رفعتنى آلاف الأمتار عن التربة الرملية المتميعة .. واحتاجت القاعدة إلى بضعة أبيات من الشعر فلم نعدم من بين أفراد القافلة شاعرًا فذًا خلدنى بست كلمات قفز لها قلبى فهتف لسانى بتقليده منصبًا خطيرًا .. واحتجنا إلى الطعام ، فقد شعرنا بالجوع بعد اليوم العاشر ، وكنّا لم نشعر به من فرط فرحتنا بركوب الأوتوبيس ومن فرط سعادتهم بقيادتى للعربة ، فجلسنا نقرر ماذا نأكل وكيف نأكل والرمل هو الطعام الوحيد المتاح .. وبعد أخذ ورد امتد ثلاث دقائق تكلمت خلالها لمدة ٢٠ ساعة قررت أن نبدأ فى زراعة تلك الأرض الجديدة التى عثرنا عليها ، وقلت إن أول خطوة فى الزراعة تبدأ بكنس الأرض مما عليها من رمال ولكن المشكلة أن أحدًا منّا لم يأت بمقشة فقلت لابد أولًا من إقامة مصنع لصناعة عدد وفير من المقشات . ولكن المشكلة أن إقامة المصنع كانت تقتضى وجود مكن وعمّال مدربين

ورأس مال وما إلى ذلك قلت لا يهم فلنتصور أننا أقمنا المصنع وبدأنا الإنتاج ، ثم سكت لحظة وهتفت فيهم أخطب: الآن.. فى يد كل منكم مقشة فلنبدأ كنس هذه الصحراء.. فلنبدأ الخطوة الأولى لزراعة الصحراء . وبعد أن هتفوا ورائى ورددوا كلماتى.. سألنى أحد ركابى: ومن أين ستجد الماء الكافى. قلت: سنرويها بعرقنا.. سنرويها بعرقنا..

الآن اطمأن قلبى وهدأ بالى وأحسست أننى أديت ما علىّ وهاهم رعاياى يكنسون الصحراء.. سعداء، يبذلون الجهد والعرق وهم يعرفون أن الكنس سوف ينتهى فى يوم أو اثنين ونبدأ بعدها فى جنى الثمار.. ولما كان الحر شديدًا فإن أحد رعاياى اختار بإرادتى أن يقف كشجرة ويظلنى تحت ذراعيه المنشورين فتمدّدت ونمتُ ساعة أو ساعتين قررت بعدهما أن أصحو رحمة بالمسكين ؛ فلما فتحت عينى وجدتها أمامى: تحت نفس السقف.. فى نفس الحجرة.. فى نفس الفراش.

سألتها: كيف جئت إلى هنا؟

سألتنى: هنا أين؟

قلت: هنا .. فى أرضى!

قالت: أرضك؟!

قلت: نعم أرضى.. وهؤلاء رعاياى..

قالت: هل ستظل على هذا الحال طويلًا؟!

قلت: أية حال؟

قالت: كنس الرمال من الصحراء..

قلت: مجهود إنسانى سيكتبه التاريخ..

سألت: لصالح من؟

قلت: لصالح هؤلاء المجهدين المعذبين بالأحلام.

سألت: ومن أعطاهم الأحلام، يعذبهم بها؟

قلت: لا تستقيم الحياة بغير أحلام..

قالت: الأحلام المستحيلة تقتل حلم الحياة الحلو.

قلت: أنت نفسك حلم مستحيل..

قالت: أنا حلم ممكن.

قلت: إذا لم يمضغوا الأحلام المستحيلة مضغونى.

قالت: أنت عاشق لذاتك.. عاشق للعذاب.

قلت: لم أجد الرحمة لأعشقها.

عند ذاك أدارت وجهها وألقت بملابسها على صدرها وغادرتنى وهى فى منتهى الأسف والحزن على.. وتلفت حولى فوجدت الصحراء مكنوسة، ونظيفة، فتهلل وجهى وانبسط قلبى ورحت أفتش عن رعاياى فلم أجد أحدًا، تعجبت وقلت لعلهم ذهبوا لأمر من أمورهم فهم أحرار ودائمًا ما علمتهم ممارسة الحرية وقررت أن أنتظر عودتهم، وانتظرت فى عز

الشمس الحارقة ساعتين أو ثلاث ساعات، ولم تكن فى معصمى ساعة، ولكن هكذا قدرت فلما لسعتنى الشمس قلت أدخل الاتوبيس استظل به. وجلست أمام عجلة القيادة وسرحت سرحة طويلة عميقة أفقت بعدها على عدد كبير من المقشات الغاضبة ينهال فوق رأسى، حتى رأيتنى أموت وأساق إلى القبر تحت قاعدة التمثال الذى خلدنى فى تلك الصحراء العارية حتى من رمالها !!

واشنطن ـ ١٩٨٥

قُلّ .. وعشرة

قُل .. وعشرة

أنا سعيد..

والله العظيم، ثلاثة بالله العظيم، أنا سعيد، بل إنى لأسعد مخلوق فى العالم منذ أربع ساعات بالضبط.

ولست غنيًا لأعرف السعادة، فأنا والحمد لله من عشاق الفقر المخلصين فى حبهم، الراضين به، رضا من لا رغبة له - بل قدرة - على التحول عما اطمأن إليه من حال.

ولست جميلًا، فعلاقتى بالجمال لا تقل قوة بأى حال عن علاقتى بالفقر، فضلًا عن إيمانى الكاسح بأن جمال الرجل فى صبره.

وفى هذا فإنى أجمل رجل فى العالم.

ثم إنى لست موهوبًا، ولا طمعت، ولا حسدت، ولا حاولت. هكذا خلقت فرضيت فاسترحت وأرحت.. وعمومًا، الكلام عن الموهبة، والمزايدة عليها - بلغة الصحف هذه الأيام - يعتبر قتلًا للوقت ووجعًا فى الرأس والمفاصل بالمرة!!

وأخيرًا، أنا لست مرموقًا بين الناس، فلكم تعثرت بى نظراتهم كما تتعثر أقدامهم بكلب نائم أو قطة مستكينة على درجة سلم، أو على رأس حارة بجوار صندوق قمامة.

لكنى أتمتع بصحة مدهشة :

حقيقى، أتمتع بصحة مدهشة، يحسدنى عليها زملائى؛ ويخيل إلى أن خمسة وستين عامًا لم تنل من هذا الجسم القوى. صحيح كانت هناك مرات مزق فيها السعال صدرى، ومرات حذرنى فيها الطبيب من ارتفاع ضغط الدم على نحو ينذر بالخطر ووجوب الحذر، ومرات تفصد فيها العرق غزيرًا إثر مجهود بسيط..

وبرغم كل ذلك.. فأنا سعيد!

صحوت من نومى اليوم فوجدتنى أضحك، لأول مرة أصحو ضاحكًا منذ خلقنى الله. وكم من مرة دب فيها خناق بينى وبين المرحومة زوجتى أم عبد المنعم بسبب بوزى الناشف الممدود كل صباح. نعم صحوت ضاحكًا: هل رأيت رجلًا يصحو ضاحكًا؟ أظننى أول من فعل ذلك فى البشر. نهضت خفيفًا، رشيقًا، لا أثر لآلام الظهر أو الركبة، ودخلت الحمام، أمضيت دقائق وأخذت دشًا باردًا فتلقيت الماء البارد كابن العشرين، وبعد الدش فتحت الكاسيت على صوت الشيخ مصطفى إسماعيل، غبت مع كلمات الله دقائق، وأنا أعد لنفسى القهوة. تذكرت أم عبد المنعم زوجتى لثلاثين سنة وتذكرت جلسة الصباح والبسكوتة على الريق، فلم أحزن، ماتت، رحمها الله، منذ عشر سنوات وتركتنى وفى رقبتى ثلاث بنات وولد. أيضًا لم ينل من سعادتى ولا شابها أن بناتى الثلاث وابنى - وكلهم متزوجون ومستقرون ومبسوطون

ماديًا - لم أرهم منذ سنتين. تفرق الأربعة فى الدنيا الواسعة.. مديحة وأولادها فى الكويت مع زوجها - شاب طيب وابن حلال نجحت جهودها أخيرًا فى السيطرة عليه وحرمانه من أهله - وعزة فى العراق مع أطفالها وزوجها - شاب ابن حلال لكنه ليس طيبًا أبدًا فقد نجح فى حرمانى منها وحرم عليها زيارتى - والأخيرة نجاة مع زوجها وأخته وأمه والعيال فى أمريكا..

أما عبد المنعم فأخذه حماه وفتح له مكتبًا كبيرًا للمقاولات فى السعودية، بإجراءات يغيب عن بالى ذكرها الآن. والحق أنى لا أعرف التفاصيل بدقة.. وعلى أية حال هذا ما قيل لى ثم إن الخطابات والاتصالات مقطوعة بيننا كما قلت من سنتين.

وليس هناك سبب لذلك والله.. سوى الحياة!!

أخذتهم وشغلتهم وألهتهم. كما أخذتنى وألهتنى - وأنا فى سنهم - عن أبوىّ.. وأنا مؤمن بالله وعارف أنى لست أول ولا آخر أب يضيع منه أولاده فى الكرة الأرضية.. ولا أعفى نفسى من المسئولية، فقد قصرت فى الرد على الخطابات فى مواعيدها فكنت أرد متأخرًا يومين أو ثلاثة بالكثير، والظاهر أن هذه المدة الطويلة ضايقت الأولاد فكفوا عن مراسلتى عقابًا لى. الله يسامحهم.

حتى التليفون.. حتى التليفون الذى كان يرن فى دكان عم عبده البقال وينادى على من بئر السلم بأعلى صوته: مكالمة ياعم ابراهيم من أمريكا.. فأصطنع الصمم فلا أرد حتى

يواصل نداءه وحتى يسمع جيرانى بالأملة التى أنعم بها .. حتى ذلك توقف وعاد الرجل كلما رآنى يدير عينيه عنى حتى لا يحرجنى بالرثاء فى نظراته .

المهم .

إرتشفت القهوة .. ووضعت نفسى فى البدلة القديمة الأصيلة ، أصيلة فعلًا ، لها معى خمسة وعشرون سنة ، ما خذلتنى يومًا فى مناسبة «بيضاء أو سوداء» ، وأنكر أنى اشتريت قماشها بالتقسيط من مدبولى الترزى ، وفصلها لى بالتقسيط وظللت أسدد فى ثمنها سنة ، كل شهر ٥٠ قرشًا أو ما تيسر !

نزلت إلى الشارع فاستقبلت عيناى وأذناى هيصة الناس وحركتهم ونداء بائع الخضار والطماطم - نفس النداء لمدة عشر سنوات على قدر ذاكرتى - بينما مضيت أدندن فى انسجام :

أنام وأصحا على ابتسامتك بتقول لى عيش

أسمعها غنوة .. بتقولى حبى ما ينتهيش

ولأنى لا أحفظ الأغنية على بعضها ، رحت أردد ما يهبط على لسانى :

هات عينيك تسرح فى دنيتهم عينيه .

هات إيديك ترتاح بلمستهم إيديه .

ومن حولى تشى بى كولونيا الشبراويشى التى اشتريتها من محل فى العتبة قبل ست سنوات وركنتها ، لم استعملها إلا فى مناسبات سعيدة نادرة متناثرة . اشتريتها ؟ لا ياربى لم اشترها . أهداها لى صاحبى (عزيز توفيق) يوم شفيت من وعكة برد .

وبالمناسبة ، عندى من العطور وارد أوربا وأمريكا وهونج كونج ما لا يحصى !.. جاءت هدايا من بناتى وأزواجهن وابنى وزوجته لكنى أفضّل ليمون الشبراويشى : رشه واحدة ترد لى روحى وتخلينى فى حال من الهفهفة يحسدنى عليها الجن .

وقابلنى (عبده) البقال فسلم على وسلمت عليه ، ولم ألمح للرثاء أثرًا فى نظراته . ربما كان هناك لكنى لم أره ، وقصدت - وأنت عمرى ترن فى أذنى - إلى مقهى «أبو عطيه الجدع» حيث جلست فى ركنى المعهود تحت المرآة القديمة التى أسودّ صقالها وذهب عنها بريقها . وما أن رآنى سعد صبى القهوة وأنا أتخذ مقعدى وأفتح عن كرشى الجاكت المحبوك وأضع ساقًا على ساق مبرزًا الجورب الأبيض والحذاء الأسود شديد اللمعان حتى أقبل علىّ صائحًا ممازحًا :

- يا صباح الفل .. يا مساء الجمال .. إيه الحلاوة دى !.. عينى عليك باردة .. إيه .. حب جديد ؟ إيه النظام ؟ إيه الموضوع ؟ ميت فل وعشرة !!

- ياواد أبلع ريقك .. حيلك علىّ شويه !.. إجرى هات لى كرسى دخان !

ـ من عيني.

ثم استدار صائحًا بطريقة منغمة:

ـ وعندك كمان واحد حمّى وصلحه لعمك إبراهيم!

ومضى، ثم عاد بالقهوة والشيشة، وقال وهو يصب القهوة بحرفنة في الفنجان:

ـ إزيك يا عم إبراهيم. واحشنا والله!.. إيه؟.. خير..؟ باين عليك الانبساط شويتين؟

ـ وهو لما الواحد يكون مبسوط ياواد ياسعد الناس تسأله وتقول له: إيه.. خير؟

ـ مش قصدي يا عم إبراهيم.. إنما يعني..

ـ عارف عايز تقول إنك دايمًا تشوفني مكشر.. معلهش ما هي الكحكة في إيد اليتيم عجبه!

ـ ربنا يديم عليك الانبساط والانسجام و.. والسلطنة كمان ياسيدي متزعلش.

ـ أنا مش زعلان.. أنت حتزعلني ليه.. أنا مبسوط.. أنا سعيد.. ثلاثة بالله العظيم سعيد..

ـ خلاص مصدقك.. ثلاثة بالله العظيم مصدقك!

ـ أقعد بقه أعزمك على حاجة ساقعة زيك.

ـ ماشي.. كله من كرمك يا عم إبراهيم.. لما أروح أطلبهو لي!

ـ لأ.. أقعد أنت وأنا اللي هروح..

ـ يا عم ميصحش..

ـ يا واد أقعد وبلاش غلبه!

وعدت بحاجة ساقعة وجلست وأنا أضحك وسعد بان عليه خجل مفاجئ.. فخفض رأسه وقال في صوت منكسر النبرات:

ـ أنت راجل طيب قوي يا عم إبراهيم.. يا ريت كل الناس زيك.

ـ هو معقوله يا بني الناس كلها تبقى ملايكه!

ونظر إليّ سعد لحظات ثم استوعب ما قلت وانفجرنا ضاحكين حتى احمرت الوجوه وهو يضرب على ركبته ويهتز اهتزازًا.. حتى أن معلمه عطيه الجدع أرسل إلينا نظرات متسائلة ومتعاطفة من وراء تخته العالي.. ومال عليّ سعد في جد يسألني:

ـ إنما مقلتليش.. أنت مبسوط ليه؟..

وسكت كأنما يستعد لقول شيء خطير ثم واصل قائلًا:

ـ أوعى يا عم إبراهيم تكون مألمن؟

ـ مألمن؟

آه مانتش عارف الألمنة والفنتمة والسنجمة والمزاج؟ وتنكرت ما يرمى إليه فلكزته ممازحًا:

- لا يا شيخ! حرام عليك.. أنا برضه بتاع الكلام الفارغ والبوظان ده!

- أمال بتاع إيه؟ بتاع الشم!؟

- يا واد إيه الكلام اللى بتقوله ده..

- الله أنت حتزعل تانى.. مش اتفقنا إن احنا بنهزر..

- نهزر نهزر مش نخرف..

- خلاص أنا غلطان.. حقك علىّ.. هات راسك أبوسها.

- خد.. بوس!!

وضحكنا تانى.. والظاهر أن منظرنا وكلامنا جذب اهتمام الزبائن فانشغلوا بمراقبتنا معظم الوقت فلم أعبأ سوى باستنفاد موجة السرور الغامر، الشائع، السارى فى كل خلايا جسمى وشرايينه العجوز!

وسألنى سعد:

- مبسوط ليه ياعم إبراهيم؟

- مبسوط ليه؟! مبسوط.. ودى عاوزه سؤال.. مبسوط يا سيدى علشان.. علشان.

- الله؟.. أنت مش عارف إنت مبسوط ليه.. يا خوفى لتكون مألمن؟

- لا والله.. صحيح أنا مبسوط.. وأنا عارف ليه أنا مبسوط بس مش عارف اشرح لك.. مش عارف أمسك السبب من جوه دماغى وأحطه على لسانى وأفهمهولك!..

وسكت محاولًا الإمساك بالسبب فى رأسى ثم قلت له:

- إنما حاييجى.. اصبر.. إن شاء الله حاييجى! أيوه يا سعد.. عرفت.. السبب إنى.. إنى..

- أيوه.. أيوه.. شد.. شد من جوّه يا عم إبراهيم.

فرّت الفكرة من مخى.. طارت.. دخلت ثانية وانكمشت:

- حاجة تغيظ.. مش عارف إيه جرالى..

ويظهر أنى صعبت على «الجدع» لأنه قال لى:

- متشغلش بالك.. المهم إنك سعيد.. إنك مبسوط ومظقطط.. وده كفاية!!

- أيوه بس الواحد عايز يعرف السبب.. يعرف السر.. عايز يقول ليه هو مبسوط..

- مش ضرورى..

ودفع إلى فمى بخرطوم الشيشة وأنا أقول:

- مش ضرورى إزاى؟.. والناس تقول إيه لما تلاقيك فاتح

بقك ع البحرى ووشك منور وعينيك بتسرج زى اللى واكل كيلو جمبرى.. أكيد حيقولوا الراجل خرف.. اتجنن.. وآديك أنت نفسك فكرتنى و.. و.. مبلبع..

- مألمن!

- مألمن مبلبع حتفرق إيه.

وسكتنا. لكن سعد قال:

- بس الناس بتحبك وتحترمك فى الحتة كلها..

فأطرقت وموجات من السعادة تجتاح كيانى وتدفع فى أوردتى وعروقى بهبات متتالية من النشوة والسمو.. ورحت أجذب الدخان فى تلذذ فتنكرت أيام الشقاوة، والمرحومة أم عبد المنعم وأنا نتجاذب الشفاه.. والولد سعد ينظر إلىّ كأنه يرى مخلوقًا من كوكب آخر.. ثم نهض عنى يلبى نداء زبون فاض به الانتظار فصرخ فيه وأوسعه سبًا.. وبعد دقائق برق فى خاطرى بوضوح مجسد سر سعادتى فأمسكت به بيد من حديد وأطبقت عليه بكل ذرة قوة فى كيانى ومن فرحتى انفجرت فى عاصفة من الضحك وأنا أنادى بأعلى صوتى:

- يا سعد.. ياسعد.. عرفت السبب.. عرفته!

وأقبل سعد علىّ وقد لمحت فى وجهه علامات ضيق يحاول طردها إكرامًا لمشاعرى.. وما بين اللحظة التى تهلل فيها وجهى بالفرحة وبين قدومه إلىّ، رأيت ابنى منعم ورأيت

المرحومة أم عبد المنعم ورأيت مديحة ونجاة وعزة.. رأيتهم كلهم أمامى باللحم والشحم والأولاد، جاءوا كلهم مقبلين، يحتضنوننى، فأخذت أضحك، أضحك وأقهقه ومددت ذراعى استقبلهم فى حضنى البارد من الوحدة سنوات وسنوات لكنى، ضممت ذراعى على قبض من الريح!

وماتت ضحكتى وأنظر إلى سعد، وإلى جواره قد جاء عبده البقال والمعلم عطية الجدع، وزبائن المقهى.. وتقدم عبده وسعد وأجلسانى ومد سعد طرف مريلته يمسح عن خدى دمعة ساخنة مالحة بل مُرّة فى مَرَارَةِ الوحدة والشيخوخة. وقال لى المعلم الجدع: إيه ياعم إبراهيم مين اللى مزعلك؟.. مالك حزين الضماير كده.

أطرقت قائلًا: مش عارف.. أنا كنت سعيد.. سعيد والله العظيم.

واشنطن - ١٩٨٥

نو .. بروبلم

نو .. بروبلم

فى الكنيست ، استقبل أرييل شارون رئيس الوزراء الإسرائيلى الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات الذى تقدمت به السن كثيرًا .

وكان شارون قد تولى رئاسة الوزارة الإسرائيلية بعد حادث اغتيال إسحق شامير رئيس الوزراء السابق على يد طبيب يهودى مهاجر من الاتحاد السوفيتى، لم يجد عملًا فمارس القوادة واستقر فيه هوان وإحساس بخديعة ، كشفت عن نفسها حين سدد الرصاصات إلى قلب شامير وهو يقول :

ـ خذ جزاء السمن والعسل .

وقد لوحظ أن عرفات أخذ يصعد الدرجات القليلة المؤدية إلى المنصة التى سيلقى منها كلمة شكر وامتنان ، بجهد يليق برجل طاعن ، وسط تصفيق وصفير حادين متصلين ، من أعضاء الكنيست الذين مضوا يهتفون بحناجر مخلصة قائلين :

عاش أبو عمار .. عاش أبو عمار .. عاش أبو عمار ..

وحانت من «أبو عمار» نظرة إلى شارون الذى تأثرت ملامحه وترقرق الدمع فى عينيه الضيقتين العجوزتين وفى الوقت نفسه ترك أبو عمار حبات دمع مالحة تتسرب إلى زاويتى فمه وقد اختلجت شفتاه وارتعشت ذقنه ، وتخضلت

لحيته بماء العرفان وبلوغ المنال، وبصعوبة قال بصوت متقطع الأنفاس:

ـ عذرًا.. لطالما أرهقتمونى! هذه لحظة تاريخية بكل معنى الكلمة، لحظة لا تطاولها اللحظات الكبرى فى التاريخ الإنسانى، تقف دونها بكثير اختراعات النار والكهرباء والذرة والصعود إلى القمر.. إنها لحظة الحق الساطع.. لحظة.. لحظة.. عفوًا إنى عاجز عن.. لكن أحمد الله، الحمد لله أن ألف بين قلوبنا وردنا جميعًا إلى الصواب، ونزع الضغينة من الصدور..

وفجأة دارت الأرض بالرئيس الفلسطينى ياسر عرفات وأنذرت هيئته بالسقوط فهب أرييل شارون إلى نجدته وأخذ بيده وربت على كتفه وطلب له كوب ماء باردًا وطوال الوقت لا يكف أبو عمار عن إزجاء الشكر والامتنان.

ـ أشكرك ياشارى! أشكرك على المجهود العظيم الجبار الذى قلبت به الموازين. طول عمرى أعتقد أن القرارات التاريخية تنتظر الرجل التاريخى، وأعظم ما صنعته يا أخى هو تلك المقدرة الفذة على أن تقنع نفسك وأعداءك بأن الفلسطينيين هم أيضًا بشر يستحقون الحياة وبأن الأرض المقدسة تتسع لصلوات الجميع، الحق أقول ولا تغضب..

فيقاطعه شارون: لا أغضب منك أبدًا ياياسر.

فيستمر أبو عمار مطمئنًا إلى بياض قلب شارون: لا تغضب إذا أعلنت أمامكم هنا أن ما يجرى الآن هو شىء يبعث على الذهول والانبهار، وآخر ما كنت أتخيله فى جيلى وفى الأجيال القادمة أن يقرر مجلس الوزراء الإسرائيلى ويقرر الكنيست الإسرائيلى والبيت الأبيض الأمريكى أن القدس الموحدة هى العاصمة الأبدية للدولة الفلسطينية الجديدة.

ويلتفت إلى أرييل شارون، ويضع راحتيه على صدره ويسبل عينيه متأثرًا، ويتهدج صوته وهو يقول: أشكرك ياأخى شارون أشكركم جميعًا بجماع فؤادى.

ويخطو إليه عرفات بتؤدة وثقل بسبب العمر الضاغط، ويطبع على خديه قبلة حانية فتتأثر ملامح رئيس الوزراء الإسرائيلى طويلًا، وتختلج نبراته وهو يحاول أن يقول: لا تبالغ يا أبو عمار ياخويا فما فعلناه وسنفعله هو الحق، هو حقكم احتفظنا به لكم إلى أن شاء الرب أن يكشف عن قلوبنا ويبصرنا أن من الواجب رد الأمانات إلى أهلها، دعنى أقلها أمام شعبى وأمام ممثلى الصحافة العالمية وأجهزة الإعلام من كل صوب وحدب إن القدس قدسكم والأرض أرضكم ونحن لكم وبكم..

وتدوى القاعة بالهتافات وبالتصفيق ثم يهبط صمت بليغ على المكان، لا تمزقه إلا فلاشات الكاميرات وتحركات مصورى التليفزيون والسينما، مسددين عيون الفيديو على رجلين صنعا القنبلة التاريخية، وفى الوقت نفسه كانت تهنئات الأعضاء القدامى فى الكنيست من كتلة ليكود قد أثارت انتباه المصورين

وخاصة الذين ألقوا برءوسهم - تعلوها الطاقية اليهودية المعروفة - فوق صدور أبو نضال وأبو شريف وأبو داود وأبو على يبكون وينهنهون!

وبعد أن انتهى ياسر عرفات من إلقاء كلمته حانت لحظة رفع العلم الفلسطينى إلى جانب العلم الإسرائيلى داخل الكنيست وفى الخلفية موسيقى حماسية تحرض الموتى على العودة.

ومع تحليق العلم الفسطينى إلى أعلى السارى، يتأمل أبو عمار المشهد فى تأثر بالغ حتى تطفر الدموع من عينيه، حبات إثر حبات..

وكان الزعيمان الفلسطينى والإسرائيلى قد وقّعا ليلة أمس اتفاقيات السلام الخمس بشهادة الأمم المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية والولايات المتحدة الأوربية والولايات المتحدة العربية، وفى هذه اللحظات المشحونة بالانفعالات الصادقة توجه رجال المراسم الإسرائيليون والفلسطينيون ناحية ياسر عرفات وأريئيل شارون حاملين الاتفاقيات الخمس للتبادل فيما بينهما.

وبتبادل وثائق الحق والحب والعزة والسلام والاعتذار، ينتهى الفصل المرير الأخير من الصراع العربى الإسرائيلى.

وقبل نزول الستار، تقدم رجلان، أحدهما فلسطينى والآخر إسرائيلى وهمسا فى أذنى الزعيمين، بعدها تهلل وجهاهما وأفسحا المقعدين إلى الخلف لينهضا لاستقبال ضيف عزيز عليهما. هبط الرئيس الأمريكى صامويل بيل ملفوفًا فى حزمة

أسطوانية كهرومغناطيسية قادمًا رأسًا من واشنطون، لبث ثانية أو بعض ثانية داخل الحزمة حتى تلاشت عنه وصار بموقفه إلى أن عانقه الرئيس الفلسطينى ورئيس الوزراء الإسرائيلى.

وكانت للرئيس صمويل بيل شهرة واسعة بـ«طيبة القلب» وعرف عنه مبدأ «أخلاقية المصالح» وكذلك «القمة تسع الجميع» والحق أن له دورًا حاسمًا فى بلوغ هذه الخاتمة السعيدة. ضم ياسر عرفات رئيس أمريكا إلى صدره بحنان وامتنان فقال صامويل متأثرًا: لولا صبركم على المكاره.. ولولا قتالكم ما تحرك أحد، ويسارع شارون إلى الاستدراك فيقول: لكن ياصاحب الفخامة لا تنس أن ما جرى لى أنا شخصيًا له أثر عميق فى هذا التحول.

ويؤمن عرفات على كلام شارون قائلًا: بالفعل بالفعل ما جرى لأخى شارون شخصيًا ساهم فى الجهد الفلسطينى الأمريكى الدولى.

وتبدو على وجه شارون رغبة فى «الحكى»، شجعه عليها نظرة فضول فى عينى الرئيس الأمريكى فمضى يقول:

وجدتنى ذات صباح فى حال مزاجية متكدرة، إنى أعرف كيمياء جسدى بالتفصيل، وذلك الصباح راودتنى مشاعر كتلك التى استبدت بى يوم أشرفت على عملية صابرا وشاتيلا إذ أمرت بإضاءة المخيمات لتتم المجزرة تحت الأضواء الساطعة. وبينما أنا ذاهب إلى مكتبى دوت فى أذنى كلمات

العزيز الراحل إسحق شامير تقول لى «لا تنس ياشارون وصيتى. لا شىء اسمه الشعب الفلسطينى، لا مكان اسمه الدولة الفلسطينية . بعثر أشلاءهم وبقاياهم وافتح لهم الأبواب إلى الدول العربية وما إلى ذلك من أوهام شامير وخرافاته النوراتية ..».

«والحق أنى كنت من النوع الذى يحفظ الوصايا جيّدا ويخلطها بدمائه وينفذها بالبلدوزر .. حتى وقع ما غير مجرى التاريخ، فلقد شاهدت طفلًا فلسطينيًا جميل الوجه، كأنه هابط لتوه من عرش السماء، فى عينيه صفاء وفى وجهه بشر، وبمجرد أن رأيته وجدتنى أنكسر من العمق، وفى لحظة أخرى رأيت ابنى الذى مات فى السن ذاتها ـ ٨ سنوات ـ وبقوة ما اقتربت من الطفل ولمست خده الناعم بيدى الخشنة المعهودة، فأحسست بخجل شامل وأحسست بخلايا ترفع منى وخلايا تحل محلها، خلايا مسمومة تفنى وأخرى نقية تستقر مكانها، كأنما أعاد الطفل برمجتى وداخلنى يقين بأنه طفلى المتوفى قدر إلىّ؛ فاحتضنته وما كدت أقبض عليه فى صدرى حتى دخلنى فى منطقة الفؤاد .. أيها السادة إنى أحمله الآن. شقوا صدرى ستجدونه موضع القلب، وأظن مهمتى صارت أصعب إذ كيف أقنع كل الذين حولى بما طرأ على من تحول .. كيف أقنع ٢ مليون شارون ـ على الأقل ـ بأن تاريخنا الدامى كله خطأ فى خطأ وأن لحظة المراجعة ورد الحقوق آتية لا محالة. كان لابد أن أزرع الطفل ذاته فى قلوبهم. لكن وقعت المفاجأة المستحيلة،

فما من وزير أو عضو كنيست أو فرد عادى من أفراد الشعب التقيت به إلا وأيقنت أن الطفل وقع بقلبه، وأن خلايا الدم اندثرت وأنه مبرمج على الحب الإلهى، لم أجد مهمتى عسيرة على الإطلاق. الطفل فى قلوبنا جميعًا. الملاك يسكن صدورنا، وما دام الملاك فينا يتنفس؛ ففيم الصراع على اللقمة وشربة الماء والمأوى. إذا كان القلب يتسع لكل هذه الطاقة؛ فالأرض إذًا تتسع لإطعامنا جميعًا..

هنا وقع التحول العظيم، وهنا استقرت بى الرغبة فى التغيير، وهنا ثالثًا قررنا رد كل اليهود الذين جئنا بهم من الاتحاد السوفيتى ـ بعد أن منحناه كما لعلكم تذكرون جائزة نوبل لأول مرة ـ إلى أرضهم ووطنهم الحقيقى، فالأرض الفلسطينية للفلسطينيين وليس للسوفييت أيًا كان دينهم، أيًا كان دينهم أقول أيًا كان دينهم، أيها السادة إن الأرض «بتتكلم عربى»!

ودوت القاعة بالتصفيق وعلت الحناجر بالهتاف وأحاطت بالمكان حماسة وروح متفائلة بينما أحدق النواب والصحفيون ورجال الإعلام من شتى أنحاء العالم بالزعماء الثلاثة يتوسطهم أبو عمار، وفتحت أبواب الكنيست على مصراعيها فدخل هواء شديد فرفرف العلم الفلسطينى بقوة وخيلاء، ودخل خلق كثيرون وجرت بالمكان حركة التحام غير منضبطة، بينما اصطفت مئات الألوف من الأمهات الفلسطينيات والإسرائيليات يحملن صور عرفات وشارون ويهتفن بحياة الزعيمين، ويقلن: لن يذهب أطفالنا إلى الحرب بعد اليوم. ورفع الرئيس

صامويل ذراعيه إلى أعلى وقال بصوت يخاطب شخصًا بعينه على مسافة بعيدة أخى الرئيس السوفيتى شيفرنادزة.. إن ما جرى ليس ببعيد عن إرادتكم الواعية فنحن شركاء بمعنى الكلمة. ودعنى أحييك وأحيى هذه اللحظة العميقة الفاصلة فبعد أن سوينا أزمة الخليج وأيقظنا الجانب الإنسانى فى قلب صدام وفى روحه المظلمة فعاد إلى رشده وسحب أسلحته وألقى بها إلى مياه الخليج واعتذر إلى الدنيا كلها، بعد هذه الكارثة التى شغلتنا زمانًا طويلًا وأنذرت بعصور وسطى جديدة، يسعدنى أن أعلن لك وللعالم قاطبة أن السلام يعم الأرض بأسرها والحب يرفرف فوق كل دار، ولم يعد ثمة جائع أو عريان أو مشتاق أو محروم أو حالم غارق فى الإحباط، أخى الرئيس السوفيتى شيفرنادزة إن هذا العالم الذى نشيده على الحق والمنطق والعدل والحب يستحقنا بالفعل!

وفى الوقت نفسه يحق لنا أن نفخر به وأن نؤكد الآن وفى كل وقت أنه لم تعد هناك بروبلم على الإطلاق.

نو بروبلم أيها السادة!

ودفع شارون يديه الضخمتين إلى أعلى؛ فلفت الأنظار والكاميرات، واتخذ لنفسه هيئة المنكسر النادم التائب، ثم قال بصوت ناعم نلول، موجهًا موجاته إلى «أخى أبو عمار»:

ـ لى رجاء حار أخير.. دعونا من فضلكم نشرب سويًا نخب إقامة آخر مستوطنة، دليلًا على الحب وسعة الصدر!!

(١٩٩١)

نوم العازب

نوم العازب

تهيأ الأستاذ خميس حموده مدرس الرسم بالقومية الثانوية، لاستقبال أعظم وأجمل حدث شخصى وعائلى؛ فهو ذاهب اليوم لتوقيع عقد استئجار الشقة الجديدة، وسوف يضع يده فى يد الرجل البركة الحاج محسن مسعد عبد المحسن.

بتوقيع العقد سينتهى فصل جاف من حياة الأستاذ خميس، ويبدأ فصل جديد، لن يعود معه مضطرًا لمهادنة أهل زوجته الذين أفسحوا له كمدًا وغيظًا فى بيتهم، وأهم من هذا بالقطع، أن زوجته لن تعود مضطرة لخفض صوتها فى اللحظات الحرجة، كما لن يعود أحد لإحراجهما بطرق عصبى أو منغم على الجدار الفاصل لكبح جماحهما إن علا الصوت!

أختها الصغيرة المراهقة.. كانت تفعل.

وبتوقيع العقد - ثالثًا - سيتمكن خميس من تحرير الفنان فيه وإطلاق جموحه، وفك أسره من قبضة وزارة التعليم.

أقسم أن أول شىء سيفعله، إذ يدخل من باب الشقة هو أن يجرى كما ولدته أمه، جوادًا جامحًا حطم قيوده.

الليل بطوله، لم يغمض له جفن.

ظل يحلم ويتصور معنى أن يكون له شقة، فى جيبه مفتاح

خاص به . إلى جانبه كانت زوجته محلقة فى كوكب الزهرة ، غير مصدقة أن فى مصر الآن رجالًا لديهم كرم الحاج محسن مسعد وأخلاق الحاج محسن مسعد تاجر الأحذية الشهير بوسط البلد .

لما انقلبت إليه على جانبها ، واستقبلته بصفحة وجهها ، قرأ أنها لا تزال مدهوشة ، فأقسم لها على المصحف ـ مد يده تحت المخدة ـ إنه حق وإن موعده الخامسة مع صاحب العمارة صاحب السعد والهنا .

وقال لها إمعانًا فى القسم : يا رب أعمى لو كنت كذابًا !

وعلى أية حال ، فإنها بانت على دهشتها ، ومنعها التوتر من الاستجابة للمسات أصابعه تجرى على كتفيها العاريين ، فلم يأبه لأول مرة !

(٢)

ذهب خميس إلى المدرسة ، وقضى يومه الدراسى طائرًا بقدمين ، وتبادل النكات مع زملائه ، ومازح الطلبة ، وتلقى تلميحاتهم بسماحة ، ثم علمهم الكثير ، من زمن طويل لم يبذل علمًا كثيرًا ، فعلمهم الكثير ، ثم اكتشف فجأة أنه ممعن فى قتل الوقت إمعانًا لحد التمثيل به .

زملاؤه أدركوا أنه فى غير أحواله ، فهو عادة مهموم منطو مطرق الرأس ، تهاجمه نوبات اكتئاب ، ينظر طول الوقت إلى قدميه كأنما تكومت آلامه وآماله عند حذائه .

ولقد صار ينظرهم حالة مستعصية ، وحسبوه يدعى التعالى والتباعد ، ففروا منه ، وخلعوا عليه ـ ومعهم الطلبة ـ لقب بيكاسو تندرًا به واستهزاء .

والحق أن خميس أستاذ وفنان موهوب ، وكل اللوحات المعلقة على جدران المدرسة تؤكد فنه وعمق رؤاه وإحساسه بالعصر إحساسًا معذبًا ، فما من لوحة ـ خصوصًا المعلق منها بحجرة المدير ـ إلا وتعكس عذاب الفرشاة فى يد مغلولة بالهم الخاص والعام ، لا تجد لها متنفسًا إلا على رقعة القماش المشدود المصقول بالزيت .

كان بارعًا فى رسم الشخصيات ، وكان أحلى وأكمل وجه يرسمه هو وجه جمال عبد الناصر .

ولما سئل عن ذلك ، قال بسرعة إن التقاسيم واضحة ، وكل ملمح فيها مشبع بالضوء والمسافة .

فمن يومها استحق لقب بيكاسو بجدارة ولقد تناقل الطلاب اللقب كما تتناقل أقدامهم الكرة ، يلكزونها ويسددونها فى أى حائط .

(٣)

على مقهى فى شارع فيصل جلس الأستاذ خميس ، وأمامه كوب شاى على صينية صغيرة ، وبيده لفة من ورق الجرائد

بها ٧ آلاف جنيه هى كل مدخراته، سحبها من البنك بعد انصرافه من المدرسة قبل الأوان بقليل.

لاحظ خميس أن الشاى مغلى مخلوط بعكارة وتراب. على مضض شربه ثم دفع ربع الجنيه وزاد عليه شلنًا ليهرب من سماجة صبى القهوة.

دفع المبلغ كأنما يكشط شريحة من جلده، فقد أحس أنه خدع، وتمكن منه هذا الإحساس لدرجة الألم، شأنه دائمًا حين يدفع مالًا ـ على تفاهته ـ عن شىء لا يستحق، أو خدع فيه.

باق من الزمن نصف الساعة، لذلك فقليل من التسكع يفيد.

وفى الخامسة بالضبط، استقبله الحاج محسن مسعد بالتهليل، ووقف يحتضنه على باب الشقة فى العمارة الجميلة، وهى شقة خاصة بالحاج تعلو شقة خميس المرتقبة مباشرة.

إلى صالون سقيم الذوق، باهظ الثمن، أدخله الحاج الذى ارتدى جلبابًا أبيض كالحليب، وبيده مسبحة، ومن حوله انتشر مسك وعطر نفاذ.

فى الركن جلس خميس، وعلى مقعد لصيق جلس الحاج، وأمامهما وقفت منضدة رفيعة مسحوبة كالحاج ذاته. فوقها شاى فى أكواب صغيرة كالأصبع، مذهبة القوائم، ومعها بسكويت وفى مكان صغير جدًّا ورقة مطوية تبين فيها خميس بعد إطالة النظر ما يشبه العقد الرسمى للتمليك، فقفز قلبه ووجب بشدة.

شرب الشاى، وذاب البسكويت فى حلقه، فأحس بأن همومه كلها ذابت تحت ضرسه.

ثم تهيأ للتوقيع على عقد التمليك.

إحساس مختلط مشوش استبد به. بهذا التوقيع يعبر خميس من عالم التشرد إلى عالم الخصوصية ومن عالم «التبعية» إلى عالم «الاستقلال».

ودون أن يقرأ ـ إظهارًا للتسليم وحسن الطوية ـ وضع توقيعه، ولقد اهتز قلمه بفعل الفرحة والقلق.

ولم يكد يفرغ حتى سحب الحاج محسن مسعد العقد من تحت سن القلم عند آخر حرف من اسم جد خميس فانسحبت روحه معه.

رفع عينين متسائلتين إلى وجه الحاج، فنطق وجه الرجل بابتسامة تفاوض، وعبثت أصابعه السوداء بطرف لحيته الخشنة الملتفة كأسلاك الألمنيوم.

ولم يلبث خميس أن أحس الصهد يصعد فى وجهه وعينيه، وتلا ذلك شعور بخضوع وانكسار بطىء يتمكن من القلب.

وجىء للحاج بدفتر شيكات لم يمس، وبهدوء العارف الواثق قدم القلم لخميس وفتح الدفتر عن الشيك الأول والثانى فالثالث حتى العاشر، وخميس يوقع ومن القلم يخربش مرتجفًا،

والحاج محسن مسعد عبد المحسن ، يحرضه على التوقيع بابتسامة ضاغطة.

وقع خميس الشيكات على بياض ، وهو مسحوب مسروق.

وسمع ـ من بعيد ـ صوت الحاج يقول له:

ـ كل السكان يعيشون على بياض.. وكل أصحاب العمارات يضمنون حقوقهم بورقة نافهة كهذه!

أطرق خميس وتمتم:

ـ خير إن شاء الله.

فواصل الحاج هاتفًا:

ـ حد الله بيني وبين فلوسك يا أستاذ. أنت أعطيتني ورقة وأنا أعطيتك شقة. الشقة أنت فيها بذاتك وبزوجتك وبأولادك، وأنا خارجها لا أملك سوى توقيع لحفظ الحق.. أنكره حفظ الحقوق يا أستاذ؟

بصعوبة قال خميس:

ـ لا أحد يكره الحق. ولا أحد يزعل من الصح ونرجو ألا يتكدر بيننا صفو.

ـ سنكون في عيني أنت وزوجتك وأولادك.

فتبسط خميس ومضى يصحح:

ـ ليس لدينا أطفال.

ـ ستنجبان وستكون شقتي عتبة خير ببركة سيدنا محمد وآله وصحبه.

(٤)

خميس في الشرفة مع زوجته.. بعد الغروب.

أمام الزوجة طبق لب وفول سوداني وعصير برتقال صناعي. أما خميس فمضى يستعد لرسم الأهرام على لوحة متهيأة له، مبهورًا بجلال المشهد الذي امتد فسيحًا أمام ناظريه، ملتقطًا ـ لحظة انسحاب الشمس ـ بغلالة من الذهب المذاب.

في الوقت ذاته، لم يغادرهما بعد إحساس عام مشترك بعدم التصديق، وبأن لهما الآن بيتًا مستقلًا في الطابق السابع، في عمارة خالية تقريبًا إلا منهما.. والحاج الذي يأتي من آن لآخر.

ولقد خطر للزوجة أن تسأل في لهجة مسترخية:

ـ ترى لماذا لم يتزوج الحاج يا خميس؟ أراه في الخامسة والخمسين، وصحته قوية على نحافته المفرطة؟

توقفت الفرشاة بيده، بموقعها عند ذروة الهرم الأكبر، فوق اللوحة، وانقلب إليها ونظر طويلًا، لعله يعجب لما دفعها للتفكير في الرجل، غير أنه اختار أن يشاركها؛ فقال:

ـ صحيح لماذا؟

ورن جرس الباب، فأبدى خميس حركة في اتجاه الباب، لكن زوجته كانت أسرع. ومن هناك إلى الشرفة، جاء هتافها

قويًا وهى ترحب بالحاج الذى دخل تعقبه رائحة فل وتسبقه رائحة مسك، يرفل فى ثوب أبيض، حدد تقريبًا قوامه النحيف المسلول، بينما أخذت أصابعه السمراء الترابية فى مطاردة حبات المسبحة، بإيقاع.

وجاء خميس واستقبله فى منتصف الطريق، مهلّلا ومرحبًا يكاد ينحنى له - إحساس ضبطه فجأة فتعجب له.

وفى عمق كنبة الانتريه جلس الحاج ثم قال موجهًا كلامه لخميس، وقد لمح أدوات الرسم وجو الفن بالشرفة:

- أريد أن ترسمنى!

- نحن فيها. هيًا.. لم تأت فى جمل!

- مبسوط يا أستاذ خميس؟

- البركة فيك.

- جئت أدعوكما غدًا للعشاء عندى.. فى شقة المهندسين. أستأذن.

- القهوة ياحاج.

صاحت الزوجة من جوف المطبخ - كانت أذناها موصولتين بالصالة.

(٥)

وترك الحاج عنوان فيللا المهندسين.

عادا من دعوة العشاء وفى قلب كل منهما شعور. الزوجة

مبهورة مسلوبة.. والزوج خائف متوجس. وطول الوقت يسأل نفسه: فيم هذا الاهتمام؟

ولقد نقل إليها السؤال فقالت مدافعة:

- ولو كان أهملنا.. كنا شكونا من الجفاء والإهمال؟.. ثم إنه يقول إن هذه عادته مع كل الذين تعاقد معهم فى شقق الهرم والزيتون ومصر الجديدة..

- إنه يقول! نعم يقول.. على أية حال الحمام المشوى كان فريدًا فى نوعه وآثاره!

(٦)

بعد ١٥ يوما زارهما الحاج.

تناول القهوة، وسهر حتى انتهى الفيلم العربى، وضحك كثيرًا على حركات وكلمات عبد الفتاح القصرى، وفى أحد المشاهد علق قائلًا: الزواج نعمة لا يدركها إلا المحروم!

فسأله خميس عن سر إحجامه عن الزواج وقد اكتملت له أسباب الزوجية السعيدة فأجاب بأن ظروف نشأته ورغبته فى أن يكون مليونيرًا عطلت أشياء هامة كثيرة «بينها الزواج من الإنسانة المناسبة، وأعتقد أن الظرف مناسب للمراجعة».

فصاحت زوجة خميس، وكانت انصرفت عن الحوار المشتعل بين مارى منيب وعبد الفتاح القصرى على شاشة التليفزيون:

ـ عندى لك عروس يا حاج!

لكن الحاج صرف الاقتراح بابتسامة وإشارة ثم قال:

ـ وأنا عندى للأستاذ مفاجأة كبيرة.

تعلق به وجهاهما، فقال:

ـ عندى إدارة حسابات للمحلات الست والعمارات الخمس، يمسك بها لص وأريد إبعاده.

أعلنت الزوجة:

ـ وخميس لها!

ـ أنا متأكد.. لكن المسألة محتاجة تفرغ.

خميس لم ينطق.

(٧)

دبت خناقة لرب السما بين خميس وزوجته تلك الليلة. هى رأت فى العمل الجديد فرصة لزيادة الدخل، خاصة أنه مدرس رسم والرسم ليس فيه دروس خصوصية، وهو رأى فى العرض قلة ذوق وأدب أن يعمل الفنان فى خدمة تاجر جزم.

ثم فاجأته بقولها:

ـ تاجر الجزم يكسو الحفاة!

ثم:

ـ على العموم اتفلق! شوف كيف ستدبر الشيكات.. ألم تفكر كيف ستدبرها؟

ـ فكرت طبعًا ولو لم أكن فكرت ما وقعت. قلت إننى سيروق بالى بعد الشقة الجديدة وسأطلق إبداعى وسأقيم معرضًا، كل لوحة بالشىء الفلانى، و ٣٠٠ جنيه شهريًا ليست أزمة، فهناك مجانين كثيرون يشترون اللوحات للمباهاة، وكلهم من طينة الحاج بتاعك. ارسم شخصياتهم وأجعلهم ملوكًا وأخلدهم!

ـ هذا ما أنت فالح فيه ـ الأوهام. يا خميس إصح يا خميس!

ـ طب تعالى.

ـ لا!

(٨)

الحاج محسن وزيارة مصحوبة بكباب وتفاح وقفص حمام حى!

فلما احتج خميس مرتبكًا قال الحاج إن هى إلا تهنئة بمناسبة العمل الذى «أحتاج فيه إلى إنسان شريف مثلك».

وبدا أن الحاج يقترح مد السهرة، وكان الكباب شهيًا، وكذلك جرى بينهم الكلام، ولقد أعلن خميس موافقته، فأيقن الحاج أن ضغوط الزوجة خلال الأيام الماضية لم تذهب سدى.

(٩)

انقطع خميس عن العمل.

لم يأبه حتى بتقديم استقالته. تركهم حتى فصلوه!

وخصص وقته لحسابات تجارة الأحذية، ولقد أوفى لها فدانت له بثمراتها، وأجزل له الحاج فى الأجر حتى قارب الألف جنيه. مبلغ لم يره أبوه ولم يحلم هو نفسه بمثله. إنه الآن يدفع الأقساط مستريحًا.

سدد القسط الأول والثانى والثالث والرابع..

والحاج مبسوط.

والزوجة مبسوطة.

والحياة تألقت كما لم تتألق شمس من قبل.

(١٠)

كان خميس يذهب لعمله فى إدارة الحسابات فى مدينة نصر، وهو يفكر كل يوم فى فكرة جديدة للوحة تلح عليه.

كان يريد أن يرسم صورة لبغل!

ملامح الحيوان واضحة فى ذهنه. فقط يريد أن يسجلها. فقط يريد الوقت ليسجلها. لكنه لا يجد الوقت، لأن العمل يقطع أنفاسه طيلة النهار.

(١١)

فى ساعة صيف ما بين الغروب والليل، دخل الحاج محسن إلى شقة خميس بالمفتاح الخاص به.

كان خميس جالسًا فى صدر الصالة الفسيحة يراجع كشوفات ودفاتر. فوجئ به الحاج، فلم يتراجع، وقرر بدء الهجوم:

ـ الله! أنت هنا!

ـ آه.. فى بيتى ؟!

ـ حسبت أن وراءك عملًا متراكمًا.

ـ أنجزه هنا اليوم لأنى متعب.

ـ ولماذا لم تخبرنى؟

ـ أخبرك بأنى سأمكث فى بيتى؟

ـ آه بيتك؟ أتقول الحق يا خميس؟ إذن فاسمع منى!

وسمع خميس منه.

سمع كل ما توقعه. لم يخرج ما قيل عما ظن. هو ذاته بالحرف. إن الحاج محسن مسعد عبد المحسن يريد أن يتزوج زوجته، على سنة الله ورسوله.

ـ أتظن أنها عندئذ زيجة حلال؟

ـ اذهب إلى أهل الفتوى. أنت طلقتها وأنا تزوجتها!

ـ ورأيها؟

ـ المهم رأيك أنت. إنها عندك فاسألها!

ـ أرفض.

ـ الصفقة طيبة. إنك لا تنجب، الأطباء أكدوا عجزك. وهى تريد الانجاب فأعطها فرصتها ،لا تكن أنانيًا وإن ركبك عناد البغال حبستك وجعلتك تفعل ما يفعله القرد. يعجن عجين الفلاحة وينام نومة العازب.

وبعد لحظات استأنف موضحًا:

ـ الشيكات الموقعة باسمك وبمزاجك.. ما تبقى منها بلا سداد هو شيك مفتوح لأى رقم أختاره أنا، وأختار لحظة استحقاقه..

وخميس ينظر غير مصدق:

ـ والآن.. هات مليونًا.. مليونين.. ثلاثة ملايين.. أربعة.. خمسة.. الدفع أو الحبس!

دفع خميس المائدة الصغيرة بقدمين غاضبتين، غير أنه لم يتحرك من مكانه، وأخذ ينظر بلا معنى إلى الأشياء المبعثرة أمامه على السجادة الناعمة الوثيرة كأنما يرى أشلاءه وكرامته.

ولبث الحاج بموقفه.. يطارد حبات المسبحة، ويتوقع ردًا من خميس. فلما طال صمت الزوج قال له:.

ـ لقد فتنتنى والله زوجتك.

ـ فتنها مالك!

ـ الله على ما أقول شهيد.

ـ لا شأن لك بالله.

ـ سبحان مقلب القلوب. تشهد السماء أنى لم ألمسها ولم تلمسنى. لقد امتنعنا حتى توافق. ولم أشأ أن أخونك أو أفسد حجاتى السبع. إن أريد إلا الزواج بزوجك.

نادى زوجته وهو مكسور من فوق لتحت، وقد تعلق فؤاده بأن تنهر زوجته الحاج وأن تطرده وأن تقول: مال الدنيا لا يغنينى عن خميس.

جاءت حائرة، وقفت ساكتة. لم يسألها خميس فقد قرأ فى وجهها المطرق كل شىء.

حطم الحاج الجو المشبع بالحرج والخجل، وقال موجهًا كلامه لـخميس:

ـ كتبت لك الشقة باسمك، خالصة، محررة من أية ديون. وكتبت لها العمارة الكائنة بالزيتون ووهبتها محلين كبيرين، وفوق هذا سأتنازل عن المحضر الذى قدمته ضدك صباح اليوم بنيابة الهرم!

(١٢)

تم الطلاق ـ تم الزواج.

ومضت أعوام عشرة حافلة بين الحاج وزوجته.

أدّيا العمرة خمس مرات وحجا معا بيت الله الحرام، ووقفا بعرفات ودعيا أن يديم عليهما النعمة ويسبغ عليهما الستر والصحة وأن يرزقهما بطفل يرث الرجل من بعده.

ولم يكن بوسع الحاج أن ينجب، فقد أكدت الفحوص أنه بلا حيوانات منوية تقريبًا، ولقد نال منه هذا التأكيد الموثق بأخنام، حتى قال في لحظة ضعف: لعلها دعوة خميس، كانت السماء ساعتها مفتوحة!

وتقدم به عمره حتى كل البصر وتمكن منه القلب وأقعده العجز، ولكنه لم يكف أبدًا عن مراجعة خزانته الخاصة فجر كل يوم، وهو طقس استغربته الزوجة في بداية زواجهما حتى كفت عن الدهشة، واستسلمت للعادة، وأيقنت أن الحاج موجود على ظهر الدنيا فقط ليراجع الخزانة فجر كل يوم.

وحتى قبيل وفاته بساعات ـ وهي وفاة هادئة ـ كان الحاج يمد يده المرتعشة حول عنقه، يتحسس موضع مفتاح الخزانة، معلقًا في سلسلة ذهبية.

وأول شيء فعلته الزوجة أن فتحت الخزانة قبل أن يداهمها أشقاؤه وأخواته غير الأشقاء، ولم تمتد يدها إلى النقود أو

المستندات أو العقود الخاصة بالأملاك. مدت يدها بظفر وتحرر إلى دفتر الشيكات الذي لم تنس شكله منذ عشرة أعوام. مميز بآثار انسكاب القهوة من بين أصابع الحاج، وأخذت تراجعها وتمعن النظر فيها مسترجعة لحظات التوقيع الصعبة والحاج يشجعها أن لا تخافي.

فرت الشيكات واحدًا بعد الآخر. ثم مزقتها كأنما تحطم قيدًا بعد الآخر.

ومع آخر شيك، ملأت صدرها بالهواء وزفرته، وهي تقول:

ـ لم تكن بحاجة إلى هذه الأغلال.

(١٩٩١)

المخبر السري

المخبر السرى

منذ اللحظة التى ركبت فيها العربة الخامسة فى مترو حلوان ـ القاهرة ، استقر فى إحساس بأن الرجلين غير طبيعين !

كنت أسبقهما إلى المقعد ، وقد كرهت الجلوس بجوار النافذة . فجاء أولهما وجلس بجانبى عند النافذة ، ثم جاء الثانى بعده بخمس دقائق ، والقطار يوشك على التململ ، واختار أن يجلس عند النافذة ، مواجهاً جارى .

أحدهما ضخم البطن ، عالى الكتفين ، متورم الوجه ، واضح السقم والمرض ، لدرجة أن أنفاسه المتلاحقة كانت تضايقنى . ومن نظرة واحدة قدرت عمره فى الخمسين أو دونها بقليل ، أما عمره الجيولوجى فيبدو سحيقًا عن ذلك ، بفعل عوامل الفقر والخلفة والتوظف المترسبة على سحنته وملبسه ـ فيما بدا لى .

والثانى الذى يجلس قبالته فى الناحية البحرية من النافذة ، كان نحيفًا ممصوصًا فى حدة ، كل ما فيه مشطوف . مسنون . النظرة واللفتة والجلسة ، جميعه يوحى بجو متوتر . وهو طويل ، وفى جلسته لا يستقر له عنق ، دائم التلفت ، سريع الزهق ، يتسرب إليك منه شعور بأنه مقيم على وتد ، فتغالب ضحكتك ، حتى تغلبك ، لكن الأدب يمنعها ويمنعك ، فيفلت منها أثرٌ على زاويتى فمك .. مجرد بقايا .

عمره فى الواقع لا يمكن أن يزيد عن ثمانية وثلاثين عامًا ، لكن عمره ليس مهمًا ، لأن حركاته العصبية تقطع بأنه يعيش فى حقبة تقلبات وجدانية متفاعلة .

أو على الأقل .. هذا ما أحسسته .

المهم أن شعورى كان صادقًا ، فمنذ اللحظة التى ركبت فيها المترو من محطة حلوان الرئيسية ، فى طريقى إلى عملى بمدرسة رقى الإرشاد الإعدادية بالسيدة زينب حيث أعمل أمين مكتبة ، أدركت أن بالرجلين شيئًا غير طبيعى ، وأنه بمجرد جلوسهما متواجهين عند حافتى النافذة ، قد حل بينهما الجفاء ، ونفرت بينهما الكيمياء . رحت أرصد هذا الإحساس ، وأتلمسه فضبطتهما مرة يترامقان فى غل ، وفى مرة أخرى ، رأيت الذى فى مواجهتى يرسل نظرة تصبر ، حتى وضعت يدى على الشعور الأكيد ، وعلى السر العجيب : حين بلغ القطار محطة المعصرة .

إنه الهواء . فأحدهما يريد الهواء ، والثانى لا يريده .

والهواء موضع الخلاف الصامت المكتوم المتحفز ، هو هواء حلوان المشبع بذرات الأسمنت وتراب جبل المقطم !

النحيف العصبى جالس فى اتجاه مصدر الهواء .

والبدين السقيم جالس فى الناحية التى تستقبله .

الذى يرسل الهواء ليست عنده مشكلة ، ربما مشكلته البادية

حتى الآن أنه غير مستريح تقريبًا لوجه الآخر ، والذى يستقبل الهواء صدره يعلو ويهبط ، كأنما يعانى من الربو ، ولقد رأيت وجهه فى لحظة كحة عاصرة وقد اختلط لونه بين الأزرق والبنى ، فأشفقت عليه .

وبدأت لعبة قط وفأر .

بدأها المتضرر بأن أمسك بطرف النافذة الزجاجية وسحبه إلى أسفل سحبة حاسمة ، خلفت إحساسًا فوريًا لدينا جميعًا بأنه يغلق نافذة فى بيت أهله !

وهو إحساس لم يتركه الطرف الثانى ليعربد فى أعماقه ، وينخر فيها ، بل تجاوزه بسرعة ، ومد يديه الرفيعتين المسحوبتين وبعزيمة مغيظة دفع بالنافذة الزجاجية إلى أعلى . عندئذ اقتحم الهواء وجه الثانى فى موجات كأنما أطلقت من أسر .

وحل غيظ أصفر على الوجهين .

والمثير أنى الوحيد تقريبًا الذى استأثر بالمشهد ومتابعته .

النحيف رفع النافذة إلى أعلى .

البدين المريض شدها إلى أسفل .

رفع وشد . فتح وغلق وغل .

وقع الصراع المكبوت موقع المعركة المرتقبة ، خاصة أن

الناس التفتت إلى ما يجرى أخيرًا ، وتهيأوا لتسلية تنسيهم وحشة الطريق وكآبة السفر اليومى .

وفى لحظة ، رأيت من وجه المريض رغبة فى التجاوز واحتواء التوتر ، أن يرتفع ضغطه ويحترق السكر .

لكن النحيف رأى أنها تسلية ؛ فها هو إنسان سريع الاستثارة بأشد منه ، فليعامله إذن ببرود .

مد البدين يده الممتلئة دهنًا وبقعًا ، وسحب الشباك لأسفل ، لكنه ترك هذه المرة مستطيلًا وطينًا يسمح بحل وسط .

الذى أمامه لم تعجبه المساحة المسموحة ، فمد يده وبهدوء وبرود ضرب كعب الزجاج ، فارتفع مشفوطًا لمنتهاه ، فانفلت الهواء بعنف .

وكنا وصلنا طرف البلد ، وداخلين على المعادى ودار السلام ، حين بلغت المناورات بين القط والفأر حدًّا أنذر بتمزيق الثياب والأعراض . مر بخاطرى أن أتدخل وأن أخرج من سلبيتى ، لكن سرعان ما تحسست فكى الأسفل ، وتذكرت اللكمة المجنونة التى أسالت دمى إذ كنت أفك اشتباكًا وقع بين لصين ـ لم أكن أدرى أنهما كذلك ـ داخل أتوبيس فى العتبة .

قلت إن أضعف الإيمان أن أسدى النصح ولا مزيد .

فأرسلت فى مرسل الهواء نظرة أودعتها كل قدرة المثقف على التوبيخ والتقريع والزجر .

ثم واجهت جارى المتضرر بمثلها ، لكن لم أتلق ردًّا ونطقًا ، كان بوسعى أن أقرأ ما قالته الوجوه ، حين فتحت الأفواه ، وتحركت الألسن ، ثم انحبس الكلام من شدة الانفعال ، ودارت الرؤوس فى مكانها حائرة .

كان أحدهما يريد أن يقول لى :

ـ سيادتك أعمى مش شايف ، المسلول ده عايز يخنقنا . فاتح علينا الهواء الفاسد !

وكان الثانى يريد أن يقول لى :

ـ باين عليك محترم وبتفهم !.. الافندى جاى يطلع روحى هنا . عايز يقفل الشباك ويمنع الهوا والدنيا حر مولعة ملزقة زيه .

فى لحظة واحدة أيقنت أن هذا بالضبط هو ما دار بينهما من غير أن ينطقا به ، لأن اللحظة التالية شهدت الرجل المريض يرتجف من قمة رأسه لأخمص قدميه كأنما سمع « ملزقة زيه » .

وظننت أن الرجل مشرف على الموت ، وحسبت أننى أمام ميت ليس إلا . وفيما أنا بين الخوف والرجاء ، أفقت على صفعة مدوية رجتنى رجًا .

لقد هوى النحيف بكفه على وجه البدين !

فعاجله البدين بكف ثقيلة عصفت بخد النحيف .

لكن .. ما هذا ؟ .. وماذا جرى ؟ ما هذه الأحداث ؟ إنها ليست صفعة واحدة . إنها صفعات متتاليات متتابعات مدويات .

فى اللحظة ذاتها وقعت سلسلة الصفعات . ليست من الرجل للرجل ، بل من كل اثنين كانا بجوار نافذة فى العربة كلها . على الصف اليمين وعلى الصف الشمال . ولو رأيت ما رأيته لروعت لمنظر كل ديكين قد اشتبكا . ديك يرسل صفعة وديك يستقبل أختها .

لقد كان الموضوع ذاته مشتعلا بمنة ويسرة ، عند كل النوافذ ، وكان الهواء هو السبب ـ على قذارته ! ووقع صخب وجلبة ، وبدا أن جريمة جماعية ستحدث ، وارتفعت أصوات تسب وأصوات تلعن وأصوات تستنكر وأصوات تهدئ وأصوات تسكب البنزين .

والقطار ماض . يخرج من محطة ليدخل فى أخرى . والعربة كلما رآها ركاب جدد مشتعلة ، تحاشوها وركبوا أخرى ، ولا أحد يصغى لأحد . وطار العقل وحل الجنون ، حتى اهتزت العربة ، وخيل للقلة العاقلة المنفرجة أنها ستهوى وتنحرف عن مسارها اليومى فوق القضبان .

وفجأة صرخت صفارة غاضبة مسحوبة ، دوت فى آذان الجميع ، فسكتوا . كما تصافعوا سكتوا ، كأنما لم يشجر بينهم خلاف ، وتطلعت العيونُ إلى حامل الصفارة .

كان يقف على رأس العربة ، موسعًا بين ساقيه وممسكًا بالقضيب المعدنى المعلق فى السقف .

إنه رجل سمين قصير ، لكن له وجه رسمى ، أو حاول أن يكون له هذا الأثر ، فلقد سمعت جارى الذى ورائى يقول لجاره الذى بجواره :

ـ باين عليه مخبر .

وبلهجة قاطعة آمرة ، صاح الرجل :

ـ المحطة الجاية .. كله ينزل !

ولم يناقشه أحد .

كانوا جميعًا فى احتياج لمغادرة العربة ، أن تتفاقم الأمور ؛ فلما جاءت محطة الملك الصالح ، تدافعنا سوية للهروب . الضارب والمضروب .. اللاعن والملعون . المشارك والمتفرج . كأنما الشر كان بالعربة ذاتها !

إلا المخبر السرى أو الذى بدا أنه كذلك .

فلقد لبث بمكانه يتابع الباب ينغلق ، والعربة خلت إلا منه ، وانتبه إلى الصفارة بيده ، فعاد ورفعها إلى شفتيه ، وقد أعجبه سحرها المثير ، واختلط فيه شعور بالنشوة والقوة ، فأخذ يرقص وحده . وظللت اتبعه ناظرى حتى غاب القطار فى محطة السيدة زينب ، وحتى اللحظة التى اختفى فيها عن عينى ، ظلت نظرتى معلقة بمنظره وهو ينفخ فى الصفارة ويرقص بينما العربة بدون جمهور !

(١٩٩٢)

تحت قدميها !

تحت قدميها !

هرش الرأس المرهق الفائر بالعذاب، وخبط بيده المصفرة على جبهته الرمادية. دفن العينين تحت الجفنين، وأغلق الشفتين على لسانه المضطرب بآلاف الحروف، ثم دس كل الرأس تحت وسادة واندفع برغبة عميقة صادقة يجتذب النوم. النوم. النوم.

ولما كان معها قبل أقل من ألف عام بالضبط، فرّ منه النوم فرار الفرحان بحريته !.. لحظتها ركع بين يديها ومضى يغمر الضوء الطائف حول الثغر والأنامل والجبهة بلثمات العاشق الندمان. لحظتها رفعته حتى مستوى قدميها ؛ فانطلقت فى قلبه زغاريد رددها الفراغ بين المشترى وعطارد حتى تدحرجت فى أفلاك ومجرات لم يسمع بها. عجبت من توهج فرحته، فما ظنت أن ارتفاعه لمستوى قدميها يمكن أن يبعث فى شموعه المطفأة كل هذه الأنوار. على أن عجبها ازداد وهى ترى فرحته تستحيل صلاة مشفوعة بالدموع، بل أمطرت عيناه بالقطرات الملحية. أدركها فزع ارتجت له كل الأرض ومدت بنور يديها جسرًا من الرحمة حط عليه قلبه للحظة أو أقل من أقل اللحظة. وجد نفسه حشرة فوق جسر الرحمة. الجسر ينبض بالحنان، تتسرب من خلاياه دفقات حب متوترة بينما الحشرة لا تصدق أنها نالت كل الرضا وهى بعد عند مستوى القدمين!

رفعت الحشرة رأسها الدبوسى وعينيها البيضاوين تريد . بلوغ عينى سيدة الأفلاك ؛ فأصابت من محاولتها بعض الفوز .. ولمحت بحر الحب الهائج المضطرب الثائر الملتهب، تسبح فيه بلايين وبلايين وبلايين الحشرات مثله !.. تسبح فى هدوء وسلام وسكينة وقد احتوتها موجات الرحمة والسماح برغم كل ما فعلته من دنايا .. سألت الحشرة : إنما أنا أدنى المخلوقات .. فكيف تنسين كل الدنايا التى أتيتها ؟

ومن الثغر النور خرج الوضوح :

ـ كنت أعرف أن الأدنى لا يصنع الشىء العظيم . فما فعلته هو أنت . لم تزد . لم تنقص وأنا لست غاضبة .

سأل وهو لا يفهم : ولماذا تغفرين ؟

قالت وقامتها تبلغ سقف الكون : لأنك الأدنى !

سأل وهو لا يفهم : ولماذا تغفرين ؟

قالت وقلبها يفتح عن وردة بيضاء غطت كوكب الزهرة : لأنك الأدنى .

سأل وهو لا يفهم : ولماذا تغفرين ؟

قالت ويداها تنبسطان حتى ضمتا الشرق والغرب : لأنك منى .

سأل وهو لا يفهم : أأكون منك وأنا الأدنى ؟.. أأكون منك وأنت الأعلى ؟

قالت وشفتاها قبلة لكل المعذبين : لم تكن أدنى .. لم تكن أدنى .

سأل وهو لا يفهم : وهل كنت أعلى ؟ هل كنت مثلك ؟

قالت وهى تضحك فيزغرد الكون وراءها : كنت أعلى . كنت مثلى .

سأل والفضول يحرق عروقه الضيقة : فمن فعل بى ما أنا فيه ؟

قالت وقد عبست واحدا على مليون من العبوس . فأمطرت الأكوان دمعا حلوا :

ـ ظلمت .. ظلمتنى ..

اهتز من أعماقه الدنيئة . بدأ للحظة وكأنه خرج من جلد الدودة اللزج . ودخل فى صندوق أحكم إغلاقه على نفسه ثم دفع به وهو جواه . إلى جوف القبر . مرت دهور قبل أن يسمعها تقول مرة أخرى .

ـ ظلمت . ظلمتنى ..

بشجاعة تليق بالحشرة سأل السؤال الذى بدا له الأخير :

ـ كيف ظلمتك ؟

قالت فى هدوء الأبدية: تذكرت نفسك دائمًا ونسيتنى!

قال فى نفسه: نسيتك.. نسيتك.. أنت. أنت. أنت من؟.. أنت من؟

سمعت هى ما قاله هو فى عمق عمق أعماقه.. فوجىء بها ترفعه أعلى مستوى قدميها وتقول بحروف الرحمة: أنا؟.. هل تريد أن تعرف من أنا؟

قال وهو يرتعد فضولًا: نعم أريد. نعم أريد.

قالت: ألم تعرفنى بآثارى؟

قال: لا تكفينى آثارك.. أريد «أنت»!

هزت رأسها فدار ميزان الكون هلعًا: لا تكفيك آثارى؟!.. باللجحود!

قال يدفع عن نفسه الوصمة: ما أنا بجاحد!.. إنما أنا إنسان عذبه تعاليك!

قالت وهى تبسط تحته جسر المغفرة: لا تكفيك آثارى وتريد رؤيتى؟!

قال: نعم.. نعم..

قالت وهى ترفع غلالة عن وجهها النور: انظر.

خر راكعًا، باكيًا، نادمًا، يلهث بالقول: أمى!

واشنطن ـ ١٩٨٥

اللحظة

اللحظـة

اللحظة التى قرر فيها دسوقى أن ينهى حياته ، كانت بلا شك أجمل لحظات عمره .

ففى ذلك الصباح البعيد .. كانت شمس فبراير قد أفلتت بأعجوبة من زحام السحاب الأسود ، فأطلت على القاهرة فرحانة ، تغمر فقراءها بدفء خاص !

ودسوقى فى تلك اللحظة من ذلك الصباح .. كانت كل مشاكله المادية قد انتهت تقريبًا .. انتهت بالسداد أو انتهت باللامبالاة ، فقبل ٢٤ ساعة فقط من قراره بمغادرة الحياة . أرسل إليه أخوه ورقة خضراء قيمتها فى السوق السوداء تتجاوز الـ ٢٦٠ جنيها .. ولم تكن ديونه فى الحقيقة تزيد على هذا المبلغ الكبير إلا بأربعة آلاف جنيه .

فقد كان دسوقى شمامًا همامًا .. على مستوى رفيع .

الحساب الوحيد الذى لم يسدده دسوقى ، كان بينه وبين دسوقى:

الحساب ثقيل .. وقديم ..

وقرر أن يصفى كل التراكمات الآن .. وفورًا .

ومادام القرار سليمًا .. ومادامت اللحظة الحاسمة صارت أمرًا تقبله النفس . واقتنع به العقل واطمأن إليه القلب... فلا بأس بقليل من المتعة .

لن تكون متعته قبيل الموت شمة أخرى . ستكون دشًا تحت ماء فبراير المجمد .

خلع ملابسه . ومضى متجردًا حتى من جلده .. ودخل الحمام وترك نفسه تحت ماء الدش ينهمر عليه فيرسل فى جسده قشعريرة اصطكت لها أسنانه .

خرج بعد خمس دقائق .

لم يجفف جسده .. تعمد إلا يجففه .

ترك الماء يتساقط عنه .. فابتلت الأرض .. لم يكترث بالمياه تتساقط عنه وتبلل الأرض . منذ غادرت زوجته حياته والأرض لا تهمه . التراب الآن سيصير طينًا بعد نزول الماء عليه .

وزوجته هجرته لأنه رجل ميئوس من رجولته . ميئوس من شهامته . رجل ميت على قدمين ، لا فائدة فيه .. يطاردها الليل والنهار بهواجس وشكوك . وكم من مرة هددته وأنذرته .. وكم من مرة أكد فيها أنه سيكف عن الشك فيها .. لكنه لا يلبث أن يشك وأن يثور . وهو فى ثورته وفى شكوكه يصير كالثور الهائج .. وكأى ثور هائج نطحها فأدمى أنفها وصنع هالات بنفسجية فوق الحاجب وتحت الجفون .

وتركت له البيت والدنيا ، وسهل المهمة أنه لا أطفال .

وفى اللحظة التى قرر فيها أن يخرج هو الآخر . كان قراره فى الواقع محاولة مخلصة للحاق بها !

مضى فى الشقة عاريًا .

وجاء بأنبوبة البوتاجاز .

وضعها فى غرفة نومه .

واستقرت كفه على مفتاحها .. هل تدور فيدور معها الموت ؟

ليس قبل تصفية الحساب . لا بعد تصفية الحساب . لا قبل ولا بعد بل مع . ودارت كفه دورة بطيئة جدًا .. فبدأ الغاز يتسرب خفيفًا .

وقف أمام المرآة وراح يصفى الحساب القديم . ولأن الوقت قصير قصير .. راح يقول للشخص الماثل أمامه فى المرآة قل لى بالضبط ماذا تريد منى أن أفعل . أو لا أفعل عشت طول عمرى وأنت تركبنى . تسوقنى . تنخسنى فأنحنى لرغباتك ، تستعملنى على أعدائك وهم أصدقائى . إنى فى الواقع أحبهم وأنت تكرهنى ، أحبك أنت أيضًا وأنت تكرهنى . لقد أفسدت علاقتى بنفسى وبزوجتى وبالعالم ، هذه ليست حياة .. لابد أن تموت لترحل عنى ، أرجوك اخرج من تحت جلدى . غادر أوعيتى الدموية . دع بمى يجرى فى جسدى مختلطًا بغاز

الموت . أرجوك اخرج . الحياة لمثلى هى الموت لغيرى . لابد للميزان أن يعتدل . لابد من الرحيل .

وإذا بالرجل فى المرآة ينتفض مدافعًا عن حياته ، ويمد يده عبر المرآة يغلق الموت المتسرب من أنبوبة البوتاجاز ويصيح لن تفعل يا جبان .. فحتى لو انتحرت لن أغادرك .. هل تعرف لماذا ؟

ـ قل لى لماذا ؟ أرحنى !

ـ لأننى الحقيقة وأنت الطارئ . أنا جوهرك وأنت الصورة ومهما قلت فالناس يعشقوننى أنا لا أنت : أنا العنيف لا أنت الضعيف .

ـ لقد كرهتك زوجتى ؟

ـ امرأة واحدة ليست سببًا كافيًا للحياة !

ـ كنت أحبها .

ـ أنا لم أكن أحبها .

ـ أنا الذى يريدها .

ـ وأنا الذى طردتها .

ـ هيا نتفق .

ـ للمرة الأولى فى حياتنا نتفق ؟

ـ نعم . لنجعلها السابقة الأولى فى تاريخ كل الرجال .

ـ كم بقى من أنبوبة البوتاجاز ؟

ـ ما يكفى للموت .

ـ أسرع إذن .

ـ نعم سأسرع .. سأسرع سا .. سر ع .

ـ إنى اختنق فيك .. ا .. خ .. ت . ن .

ماتا !

(١٩٨٩)

أوقفوا الأرض.. أريد أن أنزل!

(١)

(٢)

أوقفوا الأرض.. أريد أن أنزل!

أوقفوا الأرض.. أريد أن أنزل!

(١)

«فتح باب السيارة فى عجلة واضطراب، ومضى يتلفت بعينين أضناهما الخوف والحرص، أن يراه عابر فى تلك الساعة المبكرة من صباح شديد البرودة فى يناير. مد رباط العنق قليلًا كأنما يفسح حبل المشنقة، وامتدت يده نحوها فى فزع، فدفعها دون مقاومة خارج السيارة. تدحرجت الجثة عدة مرات حتى بلغت حافة الترعة المهجورة فأبطأ حجر من اندفاعها، ثم ما لبثت أن انزلقت فى الماء الذى اضطربت صفحته لثوان ثم استوت..

سحب نفسًا عميقًا واسترد نظراته القلقة وثقته الضائعة، وقال فى نفسه: خمسة عشر عامًا من الزواج مدة طويلة حقًا!».

(٢)

بدأت لحظة التحرر الفريدة الليلة الماضية، كان قد عاد من عمله فى مكتب العقود بوزارة الإسكان مرهقًا من الملل، والرغى، والشاى، والقهوة، وحكايات الزملاء التى سمعها عشرات المرات. فالذى حدث فى المكتب اليوم هو ذاته الذى حدث أمس وقبل أمس ثم هو الذى سيحدث بالضبط غدًا وبدون

أدنى تغيير . عاد من عمله وروحه فى أنفه ، فالمعركة مع عزت حسنين الشربينى رئيسه المباشر بلغت نقطة الاحتقار المتبادل .

كان الشربينى يحتقره لأنه موظف خائب ، تائه ، ثم إنه خريج جامعة «يعنى مالوش لازمة» ، فرحان بالكلام الفارغ الذى درسه فى قسم الفلسفة بكلية الآداب عام ٦٥ .

وكان هو يحتقره لأنه رجل جاهل ، شكله يبعث على الغيظ ، وينكر باللزوجة ، وكل مؤهلاته تنحصر فى لسان منافق وعمود فقرى ، مطيع ومدرب .

قال له الشربينى اليوم :

ـ يا أستاذ فووق ! ... نفسى مرة تستعمل عينيك زى بقية خلق الله وتبص لقدام مش لجوه ! ... هتفضل طول عمرك تايه ، ومدوخ الناس حواليك !.

ولقد رد على السخرية بموجات من الكلمات الحارقة العاصفة : لم تتعد شفتيه !

وطرق باب شقته فتذكر زوجته .. وانتبه لحالة وجهه وهو يدلف فرده ، ومضى يرسم فى عينيه هدوءًا ووداعة . وطلب الطعام . غير أنها أدركت بنظرة واحدة أنه يبذل جهدًا كبيرًا ليبدو طبيعيًا فقالت فى نفسها : لعله يريد المعركة الآن ، لكنه الجبن يمنعه .. واغتصبت ابتسامة وأخذت تحكى له وقائع يومها ، فبدأت بأمها ثم أختها وزوج أختها ، قالت إن الأم مريضة ـ للمرة المليون منذ مرضها ـ وروت له عن

استعدادات زوج أختها للسفر إلى العراق ـ للمرة الألف منذ قرر السفر ـ ثم قالت له إن «الواد شعبان» ابنها ـ وابنه بالطبع وقد سماه على اسم جده لأمه نزولًا على ضغط متصل منها ـ ملموم على شوية عيال فاسدين وأنه فتح كيس نقودها وسحب «اتنين» جنيه ولما سألته قال ببساطة إنه احتاج إلى نقود !

ظل يصغى إليها ، مبديًا اهتمامًا ظاهريًا وهى تقول وتعيد حتى جاءت إلى حكاية ابنهما الأصغر «عبده» ووقوفه على الناصية «للبت فتحية بنت الراجل الملطوش فى عقله جارنا» . وكان يعرف ما سوف تنتهى إليه هذه الحكاية من خناق مع زوجة الجار الملطوش فى عقله ومن تدخله لإعلان الأسف والاعتذار ولرفضها تقديم أو طرح الأسف والاعتذار ، حتى ليسخر منه جاره وامرأته . ولأنه لا يريد أن يسخر منه أحد ثانية اليوم فقد قرر ألّا يهتم . شرد منها وفصل تمامًا . كان ينظر إليها ولا يراها . إنها مستمرة فى سرد مصائب اليوم فى نفس واحد . كان يسمع صوتها ويرى فمها يتمدد وينقبض ويتحلق ، وسمعها تقول : يا أستاذ فووق ! نفسى مرة تستعمل عينيك زى بقية خلق الله وتبص لقدام مش لجوه !!

فطار صوابه لكنه كظم رغبة مجنونة بإرادة من حديد ، ومدت يدها تهزه وتزغده ، فكان يشعر بالهز والزغد لكنه لا يتألم كأنه يحدث لغيره . ها هى الآن تتحول إلى وجه كبير ... إنها تتعلق ... حاجباها يصعدان ويهبطان .. عيناها حفرتان

تتسعان وتضيقان، تصدران بريقًا وثورة، الأنف الضخم يبث هبات من الهواء اللافح والطاقتان ترتعشان، والأسنان صفراء صفراء خضراء المنابت: منذ متى لم تستعمل المزأة فرشة الأسنان؟ هذا الوجه كم أحبه. هذا الوجه كم يمقته. وتذكر ليلة الدخلة وعهد ما قبل شعبان ورضوان وعبده ولعن نفسه وردد فى أعماقه: خمسةعشر عامًا مدة طويلة حقًا!

ها هى تصرخ وتقوم وتقعد.. إنه لا يعرف سرًا لثورة القرد هذه.. الترابيزة بينهما تندفع فى بطنه الضامرة بقوة إثر نهوضها فجأة وتحت ضغط فخذين ضخمين غاضبين. انقلبت فازة بلاستيك فيها وردة بلاستيك.

لم يعد ثمة مفر من الرجولة وليحدث ما يحدث.

قرر أن يفعل شيئًا لصد هذه الهجمة الضارية و.. » فتح باب السيارة فى عجلة واضطراب ومضى يتلفت بعينين أضناهما الخوف والحرص...».

(٣)

صد الهجمة الضارية بوجه من اللامبالاة والبرود، دخل الحمام وأخذ دشًا طويلًا، وغير ملابسه، ودخل فى بدلته القديمة الجميلة، وسكب بعض العطر على الوجه والجسم حتى انتشى وطالع وجهه على المرآة فابتسم راضيًا وقال فى نفسه: يالأناقة! وغادر الشقة يترنم بأغنية قديمة لعبد الوهاب وزوجته تشيعه بنظرات الرثاء، وقالت وهى تصفق الباب وراءه: لن تفلت منى أبدًا!

(٤)

منتصف الليل. وأول أوتوبيس قابله قفز فيه! كان هناك مقعد وُاحد خال... اتجه إليه بسرعة وجلس، فأحس بمتعة الفوز. ولم يسأل أحدًا ما وجهة الأوتوبيس ولا محطته الأخيرة. ولم يكن يعرف ذلك ولا خطر على باله أن يطالع اللافتة أعلى وجه العربة. لا سأل السائق ولا الكمسارى ولا الركاب.. إنما جلس. كأنما ألهاه العثور على مكان شاغر عن أهمية المحطة الأخيرة أو وجهة السير على الأقل. قال فى نفسه وماذا يعنى خط السير، فليذهب حتى آخر الدنيا.. ربما كان آخر الخط الهرم أو شبرا أو المعادى أو امبابة. «هيروح فين يعنى؟ ستأتى لحظة يقف فيها، وسوف أنزل وسوف أعود وسوف تسخر منى زوجتى كالعادة.. وكالعادة أيضًا سترغمنى على ما أكره، وسوف يطلع النهار وأنا أشعر أن بيتى يغتصبنى وعملى يغتصبنى والشارع يغتصبنى».

واستسلم لراحة اليأس.

وأغمض عينيه فى استرخاء صعب المنال.

ومضت ساعة، ساعتان. والأتوبيس ماض فى طريقه لا يتوقف.. والناس ساكتة... كالتماثيل لا تنطق ولا تتحرك. إنما تتنفس. الناس جامدة. الوجوه رخامية أو حديدية أو خشبية. لماذا سكان هذا الأتوبيس صامتون. كل أتوبسات مصر تعج

بالخناق والزحام والصراخ ونداء الباعة وثورة امرأة وقف خلفها خسيس. إلا هذا الأتوبيس..

إن أحدًا لا يتحدث إلى أحد.. ولا أحد حتى يميل عنقه أو يديرها، فالرءوس مثبتة فوق الأعناق والأعناق مثبتة بين الأكتاف، متشنجة في تصلب.. ومد نظراته عبر النافذة، فرأى أن لم تعد هناك مرئيات. ولم يبق من علامات أي شارع في القاهرة سوى الظلام وسحاب رمادي يجرى على قمر منير، يخفى الضوء حينًا ويتيحه أحيانًا..

الأتوبيس يخوض في طريق لم يعد مرئيًا وليس له حدود أو شطآن. بل إن السائق أطفأ الأنوار الأمامية والظاهر أنه ليس بحاجة إليها وإلا ففيم كل هذه السكينة وكل هذه الطمأنينة. والظاهر أن عينيه قادرتان على النفاذ في حجب الليل. وإلا ففيم كل هذه السكينة وكل هذا الاطمئنان!

واستبدت به فكرة أن يعرف، أكثر مما استبد به خوفه أو دهشته من مسير الأتوبيس بلا توقف، فلا الناس ينزلون ولا الناس يصعدون.

وحانت منه التفاتة إلى جاره كأنما انتبه أخيرًا إلى أن جارًا بجواره رغم إدراكه العام بوجود بشر في العربة، ومال بأدب كثيرًا ما طالبه به عزت حسنين الشربيني عند الخطاب.

- إلى أين؟

رد الجار بمنتهى الأدب والوقار والآلية والحسم:

- لا أعرف!

- لا تعرف!؟

ومد عنقه يطالع وجه جاره فكأنما نظر في مرآة! إن الشخص الذي يجلس إلى جواره ورد عليه بـ «لا أعرف» هو... هو نفسه. إنه يجلس إلى نفسه.. مع نفسه. إنه اثنان على مقعد واحد. ماذا حدث؟ ماذا هناك؟ فيه إيه؟ من أنا؟ الأتوبيس الذي ركبته لا يختلف عن كل أتوبيسات القاهرة. فمن أين هبط هذا الأتوبيس؟... ثم إن الرجل له ذات العينين الضيقتين المتعبتين، عيناي، والبدلة الكحلى القديمة بدلتي، والرأس اللامع الأصلع، صلعتي!... ربما هي المصادفة المستحيلة قد وقعت.

قالها والدهشة تجتاح كل خلايا جسده.. فليسأل جاره الذي وراءه.. وسأل وتلقى نفس الإجابة من نفس الملامح من نفس الشخص - النسخة منه!!

قال في نفسه، لابد أن أتعلق بقشة الصدفة وأصدق قانونها المستحيل وإلا طار عقلي وغرقت في بحر الجنون». وتشبث بتبرير الصدفة ومد عنقه يسأل جاره في المقعد الأمامي، فلما استدار الجار يرد على السؤال ارتسم الذعر على وجهه: كانت زوجته!! ماذا حشرها في ثياب عزت حسنين الشربيني؟ ومن خلع على وجهها شاربه الكث المقرف؟!

طالعته بوجه باسم متشف، يفصح عن لزوجة ونكاية، وكاد يجن بل قال إنه أكيد قد جن. وأمسك بالصلعة بين كفيه فتغضن

الجلد وبانت من فوق كليمونة تحت ضغط عاصر . كان يريد قمع الألم ووقف هدير الدوامة والعذاب . ومن شدة العصر أحس أن الرأس تطقطق جذورها من بين الكتفين .

رباه... إنى أموت دهشة !

مترنحًا ، متهاويًا ، غادر مجلسه ومضى فى الطرقة الضيقة حتى انتهى إلى موقع السائق ، فاقترب منه فى احترام بالغ وانحنى كقوس وضرب يده فى الجيب الداخلى لسترته يخرج علبة السجائر ، وسحب واحدة تقدم بها فى رقة وخشوع والسائق لا يلتفت إليه .

أخذ يتحدث ، يبثه دهشته ورعبه وعدم فهمه ، والسائق لا يلتفت إليه . عيناه ثابتتان على الطريق ، لا ترمشان ، ولا تتحرك فيهما روح ، حتى إذا انتهى الحائر من روايته التفت إليه السائق فرأى نفسه فيه !

يا رب الكون ! إنى أتمزق حيرة !.. ماذا جرى ؟ أنا كل هؤلاء ؟ أنا كلهم أم كلهم أنا ؟ من منا الأصل ومن منا الصورة ؟ ثم لماذا هم مطمئنون ؟ ولماذا أنا حيران لماذا... لماذا ؟!

وتكون دمع ساخن فى العينين المرهقتين ، وطفر هاربًا على خدين جعدهما الخوف .

ووقف لا يدرى ما يفعل . إنما وقف .

وتطرق إلى أذنيه صوت السائق ، يقول فى هدوء آمر :

- هل رفعت الملف رقم ٦٥١٦٦٧١٢٣٩٢٠١٨ إلى السيد أمين عام لجنة توزيع الشقق ؟

هنالك لم يعد أمامه سوى أن يطلق كل ما أودع فى كيانه من قدرة على الصراخ والزئير . وعلى وقع زئيره هب الركاب كأنما أفزعهم من سبات عميق .

كان هناك فى مقدمة السيارة عند السائق وطالعهم لأول مرة : وجوهٌ مصطفة . نسخ متكررة منه !

وشاهد نفسه فلم يطق . شاهدها فى كل الركاب . وبدون وعى امتدت يده المذعورة تعالج فى عصبية باب الأتوبيس ، لكن الباب لا يفتح . عالجه مرة ثانية . لكنه عنيد . كبس بمجمل يده على مفتاح بلوحة التشغيل أمام السائق ولم ينفتح الباب . دار حول نفسه . تخلص من الجاكت فتخلصوا معه فى ذات اللحظة من جاكتاتهم . جرى فى طرقة الأتوبيس ، يتخبط من أثر السرعة ويحاول التماسك على القضبان المعدنية للمقاعد والسقف . حاول فتح الباب الخلفى عبثًا . أراد فسخه عبثًا . ولم يسع أحد إلى منعه أو مساعدته ، كل ما فعلوه أنهم مضوا فى لفتة عنق جماعية يتابعون جهوده المحمومة للخروج...

لكن...

ورنت «لكن» قوية فى رأسه ... لكن ماذا يخيفه منهم ؟ ماذا يخيفه منهم ؟! إنها وجوه بشرية ثم إنها ليست غريبة !.. وهى

ليست وجوهًا لعفاريت؟ إنها فى النهاية ذاته. لماذا يخاف ولماذا هذه الرغبة الهادرة الحارقة فى مغادرة المكان؟!

وهدأ؛ قليلًا فتشجع راكب على الاقتراب منه، وسأله فى صوت نحاسى:

ـ لماذا تريد النزول؟

ـ ولماذا تحبسوننى؟

ـ لم يحبسك أحد.. دخلت بقدميك.

ـ أريد أن أنزل.

ـ تنزل أين؟

ـ الشارع... أكيد أننا الآن قطعنا القاهرة مئة مرة ولعلنا بلغنا أسوان!!

وبدا أن الراكب غير عابئ بما يسمع، ربما لأن اللغة غير مفهومة، فقد تجاوز ما سمعه ومضى يقول فى نفس اللهجة الخالية من المشاعر:

ـ ليس ثمة شوارع خارج هذه العربة، الشوارع كلها هنا، والناس كلهم هنا والحياة كلها هنا...

ثم سكت لحظة وأضاف فى رنة مخلصة لأول مرة:

ـ ألا تروق لك حياتنا؟

ـ حياتكم؟.

ـ نعم حياتنا.

ـ من أنتم؟

ـ نحن أنت!

ـ وأنا من؟

ـ نحن!

رباه... إننى أموت من عدم الفهم!

ـ هل تعيشون هنا؟

ـ نعيش منذ عدة آلاف من السنين!

ـ آه!.. بدأنا التخريف إذن!

فسأله الراكب غير فاهم:

ـ نعم؟

فمضى يسأله بدوره:

ـ قل لى: ألن يقف الأتوبيس لحظة. مجرد لحظة يخرج فيها واحد مثلى حاسس أنه غير فاهم.

ـ ولماذا تريد أن تفهم؟

وماذا تعنى؟

ـ أسألك.. فيم حاجتك إلى الفهم.

وظهرت مسحة من القلق فى عينى الراكب فقال يحذره:

ـ اسمع ! المصيبة التى تعانيها الآن سببها أنك مصرّ على أن تفهم برغم أنه ليس هناك ما يستحق أن يفهم أو يقبل الفهم أصلًا. وعلى أية حال دعنى أحذرك ! لمْ تُعْدِنا حيرتك ودهشتك. لقد توقفنا عن ممارسة الدهشة والتفكير منذ وقت طويل ولزم كل منا مقعده وأراح باله !.

وكان صوت الراكب قد علا فلما انتهى من تحذيره مضى يتفقد أثر كلماته فى العيون المتصلبة نحوهما ؛ فرأى تأييدًا عامًا فامتن لهم بانحناءة رقيقة.

وتزاحمت الأسئلة فى رأس التائه ؛ فقال:

ـ أفهم الآن من كلامك أن الأتوبيس لن يقف أبدًا... لكن ... ألم يقف على الأقل مرة واحدة فى الماضى ليجمعكم !.. ألم يقف ليأخذنى ؟!

ـ لقد بدأت علاقاتنا بالاتوبيس بالصدفة البحتة !... وجدنا فيه ووجدناه فينا ! ثم ماذا يهم أن توقف أو لم يتوقف ؟ ألسنا هنا.. وأليس السائق بقادر على معرفة طريقه وسط الأطلال والمجرات. ألسنا هنا فى رحلة دائمة بلا مفاجآت، تنقل إلينا ميكروب الدهشة الذى يزلزل كيانك الآن ؟.

وأسقط فى يده... وبدا عاجزًا تمامًا ؛ فبكى متأثرًا من قلة الحيلة، وقال يقرر:

ـ لكنى والله لا أنتمى إلى هنا !

ـ كذاب !

ـ لا أنتمى صدقونى ! لقد فاض بى. لقد ضقت من المحاورة. إنى أنتمى إلى شىء آخر خارج هذه الأبواب المغلقة، وانفجر بكاؤه.. وأطرق محدثه آسفًا عليه ثم استدار وانصرف وهو فى مكانه لم يزل، قد اتخذ هيئة التمثال المعتادة.

انقلب من نهاية السيارة إلى قائدها مرة أخرى.

وتفحصه بنظرة توسل أن افتح الباب، فقال:

ـ هذا مفتاح الخروج. اضغط واخرج ما منعتك! هل منعتك ؟.

ـ أبدًا وأشهد الله على ذلك !

ـ إذن ففيم شكواك ؟

ـ أريد أن أنزل.

ـ انزل.

ـ طب افتح.

ـ الباب مفتوح !

ـ الباب مسدود !

ـ أنت حر !

ـ أنا حر ... كل هذه القضبان وتقول أنا حر !

ـ أنت الذى لا تريد أن تنزل ... لو كانت رغبتك صادقة فى مغادرة المكان لانفتح لك الباب وحده !

ـ رغبتى جد صادقة .. لكن الباب يستجيب بقوة وعلى نحو لا أدركه لرغبتك الداخلية فى حبسى هنا .

فقال السائق فى هدوء مثير :

ـ ليست لدى رغبة على الإطلاق فى أن أحبسك هنا ! وصدقنى . إن وجودك كعدمك ، فأنت من طائفة الرغابين ، النكديين ، الذين لا يكفون عن تعكير حياة الناس بالأفكار الحزينة المؤلمة .

ـ أنت عارفنى ؟

ـ طبعًا . إنك أنا !

ـ رباه !

وأشاح عنه ، يائسًا من الحوار ، ودارت نظراته كأنما تنكر أن زوجته بالعربة وقال فى نفسه ربما راعت العيش والملح والليالى الحلوة وأنجته من سجنه ، لكن زوجته كانت قد استحالت إلى تمثال منحوت من صخر الصمت والجمود ـ فلما دنا منها فكأنما دنا من هواء . قال : أحدثها لعلها تسمعنى ،

ـ يا صفية !.. يا أم شعبان ورضوان أستحلفك بالعيش والملح والليالى الملاح أن تساعدينى على الخروج . افتحى لى

الباب ـ سأموت هنا . أختنق . أريد أولادى ! أريد أولادى !

ردت عليه زوجته وهو لا يراها :

ـ أولادك هنا .. وأمى وأختى وزوج أختى أيضًا !

قالتها كأنما ترميه بمفاجأة أو أمر واقع معًا .

(٥)

بات واضحًا بكل المقاييس أن التفاهم مع هؤلاء ـ من عاشر المستحيلات ، فانهار إلى أرضية العربة ومضى يفكر فى هدوء عصبى . فكر طويلًا حتى بلغ تفكيره نقطة أراحت باله وأسكنت فؤاده المزعزع .

قال فى نفسه . سأتودد ، وأحاول أن أفهم من جديد .

مال إلى الراكب خلف السائق وسأله :

ـ هل تموتون ؟

ـ بالطبع نموت ونتجدد !

ـ وكيف تتم عملية التكاثر ؟

لا يعرف كيف واتته الجرأة على إلقاء السؤال سافرًا ، لكنه انتظر الإجابة . وقال له الراكب :

ـ تتم كما تتم فى كل الأتوبيسات الأخرى !

واتسعت عيناه من المفاجأة :

- أهناك أتوبيسات أخرى غيرنا؟

- طبعًا!

- أين؟

- خارج هذا الأتوبيس!

- أيوه! عارف أنها خارج هذا الأتوبيس لكن أين؟

- لا أعرف؟

- وكيف عرفت أن لها وجودًا!؟

- لابد أن يكون لها وجود.

- ومن أين يأتيك هذا اليقين؟.

- لا أعرف. لكننى موقن...

وسلم عاجزًا عن الفهم - ثم ما لبث أن مضى يسأل:

- وكيف تتم عملية التكاثر فى الأتوبيسات الأخرى؟

- كما تتم هنا!

- يا أخى جننتنى!... لماذا المراوغة لماذا؟

- أنت الذى تراوغ. سألتنى ولكنك لا تريد أن تفهم كما لا تريد أن تنزل!

سكت لحظة متفكرًا ثم قال:

- وموتاكم... أين تدفنونهم؟

فأجاب الراكب فى بساطة:

- نلقى بهم من النوافذ. نفايات!

- والمرضى؟

- نلقى بهم من النوافذ.

- مرضاكم كموتاكم؟

- لا فائدة من إضاعة الوقت مع مريض... نلقيه من النافذة ويأتى غيره...

- يأتى من أين؟ يأتى مثلى بالخطف والسرقة؟

- دخلت بقدميك.

- نعم. دخلت بقدمىّ.. لكنك لم تقل من أين يأتى غيره.

- بالتكاثر!

- ثانى؟

ومضت لحظات صمت قطعها سائلًا:

- أليس فيكم كبير؟

- كلنا كبار... بالتناوب!

- كيف؟

- كل منّا يقود العربة ساعة!

ـ والساعة هنا كم دقيقة؟

قال الراكب الذى أدرك أنه تكلم أكثر مما ينبغى وكشف أكثر مما يجب:

ـ لنا حسابات خاصة ـ وستعرفها حين تكف عن رفضنا.

ولأول مرة يطلق ضحكة ذيّلها بقوله:

ـ خلاص!.. لقد راقت لى حياتكم... فبعد الإجابات الشافية منك اقتنعت بأن كل الأتوبيسات واحدة! لا تختلف أبدًا إلا فى التفاصيل.. ربما تفاصيل ما يجرى فى عملية التكاثر فحسب!

وصمت قليلًا وقال متنحنحًا:

ـ متى يحل دورى فى القيادة!

قال الراكب: إن آجلًا أو عاجلًا سيأتى ـ فقط أغلق فمك وكف عن التفكير.

فقال فى نفسه: سأسكت عسى أن أجد مخرجًا.

ثم رسم له علامة الأخرس، الأعمى، الأصم!

(٦)

التزم الهدوء الكامل ـ وبدأ يتعرف فى روية على تفاصيل المكان، نظر إلى السقف فانتبه لأول مرة إلى روعة التكوين ـ السقف المطرز بالنجمات والأسرار والأفلاك والملكوت والألغاز والخشوع..

وسرت فى الكيان الثائر المحموم راحة شاملة فتضاءل، وتصاغر ودخل فى بعضه منحسرًا عن طوله وعرضه.. وشعر بخجل عام، فأطرق ناسيًا مشكلته برمتها.

ومضى وقت حل فيه السلام بينه وبين كل الركاب، ثم حانت منه، وهو على حاله بعد كرأس دبوس ـ التفاتة إلى زوجته عزت حسنين الشربينى ففر السلام من صدره وفزعت عيناه ومد يدًا خاطفة نحو يدها اللحيمة، غير أنها أسرعت تخفى مجموعة الأوراق بخفة وتعف، وأطلقت ضحكة اتبعتها بسؤال لم تكن فى حاجة إلى إجابته:

ـ من المنحوسة الغلبانة؟

ـ منحوسة؟ غلبانة؟ عمن تتكلمين؟

ـ عن التى قتلتها أو ستقتلها. عنى!

ومضت تقرأ عليه كأنها ضبطته متلبسًا.

«فتح باب السيارة....

ثم قطعت القراءة متهكمة:

ـ أنت تملك سيارة؟!.. طول عمرك وأنت عاشق الفقر ومصاحب القنزحة... فمن أين تأتيك السيارة يا فقرى؟!

ـ خيال! خيال يا أم شعبان ورضوان!

ـ والخيال اختار أن تكون القتيلة أنا . أنا أم أولادك بعد عشرة خمسة عشر عامًا .

ـ يا ستى خيال والله خيال .

ـ اخرس يا قاتل يا سفاح !

وخرس . وقال فى نفسه ، مزيد من الأخذ والرد يعنى المزيد من المتاعب وفساد التدبير . ثم قال ، جاهلة ماذا ستفعل لجاهلة ، ونفخ بحرارة وحسرة وقال : الله يرحمك يابا !. رآها تمزق الأوراق فأحس بأعضائه تتفسخ عن جسمه غير أنه لم يستطع المقاومة أو الرد ، واحتمى بوجه من الجليد والثلامة واللامبالاة .

(٧)

وطال سكوته وامتد أياما وأسابيع ...

ومضت العربة تقطع آلاف الأميال الفلكية دون أن تتزود ببنزين ، أو يرتاح سائقوها أو يطعم راكبوها أو حتى ليقضوا حاجتهم !... ومضت مكتفية بأحيائها وأمواتها تشق مجرات بعد مجرات . كان يحدث أحيانًا أن تفتح نافذة وتغلق فيرى أحدهم ينفض يديه كأنما علق به غبار ؛ فيتفقد الحاضرين فيدرك أن المريض الأخير فاضت روحه . وسرعان ما يظهر بديل له يحمل ذات الملامح ولن كان شبابًا !...

ولم يكونوا يتخذون ملامحه وشكله إلا إذا نظر فيهم ، فهم

على هيئاتهم وصفاتهم حتى يراهم ، ولم يحدث مرة أن رأى أحدهم « الحقيقى » دون أن يكون صورة منه .

وتشبث بالصبر سبيلًا أخيرا للنجاة ، وذات يوم اقترب منه رجل وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، وقال له :

ـ تفضل !

ـ إلى أين ؟

ـ تعال !

إنه الرجل ذاته الذى فتح النافذة وأغلقها ونفض يديه من آخر مريض فى العربة ميزه من خلاء مقعده على يمين السيارة ـ المقعد رقم ١٦ . أيقن أنه مريض وأن مصيره الموت . ولن تعرف لجثته مكان ـ غير أن تصفيقًا عامًا تردد فى جنبات العربة ، ووقف الحاضرون احترامًا وتقديرًا بينما هو يتقدم ـ مدفوعا من الرجل ـ نحو عجلة القيادة ، وتنحى القائد الحالى عن طيب خاطر ، وانحنى مرحبًا ومهنئًا وشفع ذلك بالنصيحة فقال :

ـ أنت الآن قائد هذه العربة ـ انس أنك كنت من ركابها وتذكر فقط أن المسئولية هائلة ، ضخمة ، جسيمة ، لا علاقة لها بالمشاعر . عليك بالقيادة وعلينا بالانقياد !

ـ اطمئنوا ، سأسوقكم كما لم تساقوا أبدا من قبل !.

وجلس .

وارتاح فؤاده ـ واجتاحته فرحة لم يعهد لها مثيلًا واستخفته النشوة فقال فى نفسه بلا تردد: أنا عبقرى. بدون شك أنا عبقرى. ولقد نجحت خطتى وهأنذا الآن أقودهم، وضبط جلسته على المقعد ثم مد قدمًا عازمة وضغط على البنزين؛ فانطلقت العربة من عقال العقل؛ فخرقت المعهود وأصيب السكان لأول مرة بدهشة!!

وأعربوا عن دهشتهم العائدة بعد قرون قائلين: بارك الله فيك! بارك الله فيك! وانحنى لهم وهو فى موضعه دون أن يلتفت. إنما انحنى لهم ـ وبعدها شمل الجميع سكون وطمأنينة وعاد كل منهم إلى مواته السابق، إلا هو إذ لم ينس أنه أسير وسجين. وهو الآن يستطيع أن يفك أسر نفسه وينطلق من سجنه، غير أنه استشعر للقيادة متعه آسرة فقال لن يضيرنى أن أقودهم بعض الوقت فلكم روعونى، وعذبونى.

وأوشك الفجر على الاقتراب فى اليوم الألف من الرحلة.

الآن حان وقت التنفيذ، الآن هو أنسب وقت، ليتخلص منهم جميعًا وينفرد بالعربة ستصبح ملكًا خالصًا له وحده. سينفرد بالدنيا ملكًا متوّجًا عليها بفرملة واحدة.

ها هم الآن ساكتون، مستسلمون، نائمون، ها هم قد اطمأنوا إلى قيادته وشجاعته.

وبهدوء كاسح ضغط على زر الأبواب؛ فانفتحت بسلاسة وفى ذات اللحظة نقل قدمه على البنزين إلى الفرامل وعصر،

فانكفأت السيارة وانقلبوا كالفراخ المذعورة وتبعثروا فى الجوانب وارتطم بعضهم ببعض وفى الأقدام المعدنية للمقاعد وسط صرخات متشنجة ثم انحدروا متدحرجين نحو البابين الخلفى والأمامى المفتوحين.

العربة الآن خالية خالية ـ تخلص منهم، فليغلق الأبواب سريعًا. اندفع بارقًا مطمئنًا متنفسًا ملء صدره منصتًا فى تلذذ واسترخاء لموسيقى الراحة، تنبعث من أعماقه وقد أحس للحظات نادرة أن الكون كله مركز فيه، وفتح النافذة إلى جواره ومد ذراعه ولمس «نجماية» متلألئة مرت عن يمينه، فشع فى كيانه سرور، وضرب على صدره منتشيًا غير أنه أحس بيد فوق كتفه!

بان رعب فى عينيه.. وتغضن السرور فى وجهه، وفى لحظة امتدت أياما استدار يطالع صاحب الكف الثقيلة فى فزع عاصف. إنها زوجته عزت حسنين الشربينى!

فرجينيا ـ ١٩٨٦

المسكونة

المسكونة

المسكونة

تعرفت عليه ذات مساء تحت عجلات سيارة بالكاد !

كان يعبر الطريق متصعلكًا .. متأملًا إشارة المرور أو فاحصًا ما تحت قدميه على تفاهته ،حين اندفعت هى فى طريقها لتجد إنسانًا توشك أن تقتله ..

من شدة الرعب والهلع راحت تمطره بالسباب وتلعن اليوم الذى ألقى به إليها !

كأنها كانت تدرك بلا وعى أن هذه اللحظة التى كان ينبغى أن يموت فيها على يديها ، هى لحظة حياة لهما أو موت لها ولحياتها على يديه !

المهم .. أنها هبت لإنقاذه مذعورة ..

وأخذته فى سيارتها .. جلس بجوارها كأن الناس لم يسحبوه من بين يدى الموت ..

كل الذى فعله أن صوب وجهه للأمام وترك عقله يشرد وعينيه تحدقان فى الفراغ ، بينما هى تحدثه وتحاول أن تكشف شيئًا عن شخصيته .. ونسيت أن تسأله أين هو ذاهب ، ونسيت أن تسأله اسمه .. لكنها انطلقت بحماس خيرى غريب تسأله :

ـ معك نقودًا ؟

ـ ولا مليم ..

بيد متلهفة فتحت بطن حقيبتها وأخرجت ٢٠ جنيهًا وضعتها فى جيب قميصه .. شىء ما حدثها أن الشاب جائع لم يطعم لليلتين !

وفى أقرب إشارة طلب إليها أن تتركه ينزل .. ففعلت .

وقف على الناصية يتأمل حوله ، لا يعرف لنفسه وجهة .. لا الآن ولا قبل الآن ثم مد أصبعيه فى جيب القميص وأخرج الـ ٢٠ جنيها ودخل مطعمًا يقدم الكباب !

ثانى يوم .. وقف لها عند الإشارة ذاتها .. كان يعرف أنها ستجئ وأنه سيراها وسيركب معها .. وهذه المرة لن يأخذ منها نقودا ولن يقبل .. بل سيدعوها إلى فنجان شاى فى الفيشاوى

ووقع ما توقعه ..

ركب معها واصطحبها إلى أحد المقاهى المعروفة وظل يحدثها من السادسة حتى العاشرة ، حتى سرق منها عقلها وبعد عقلها سلب قلبها .

بهرها بمنطقه ورؤيته وأقنعها أن البطالة متعة خلقت خصيصًا لمن يزيد الاستمتاع بالوجوه المذهولة التى تزخر بها الشوارع ..

وسألته :

ـ مم تأكل ؟

ـ أجد دائمًا ما آكله .

إجابة غير مقنعة .. لكنها وجدت نفسها مقتنعة .. وجدت أيضًا بداخلها رغبة عنيفة فى ألا تسأل أسئلة تحرجه وتضعها أمام قرار فورى بقطع هذه العلاقة التى تنمو ببطء جميل بينها وبين هذا الصايع !

وتكررت اللقاءات !

وأهملت المذيعة عملها ..

وصارت تنفق عليه .. وهو ينفق عليها ..

هى تنفق أموالا وهو ينفق كلامًا وفراغًا واستهبالا !

إنها تعرف على وجه اليقين أن الرجل الذى وقعت فى غرامه ليس أبدا حلمها ولا كان .

ولو رآه أى إنسان من عائلتها أو من زملائها فى العمل لأنكره عليها ولرماها بسوء الصحبة وخبل العقل .

إن الرجل خال من أى ميزة .. فلابد إذن أنها مجنونة وأن شيئا حدث لها .

وسيقول آخرون إن الولد عمل لها عملا أو أنجز لها شيئا ، تركها صاغرة راضية بسيطرته عليها وعلى جيبها .

كانت تنعم بجلسته وبحديثه .. وتظل أسيرة أنفاسه ،

مشدودة إليه طول الوقت .. حتى إذا أزف الفراق إلىٰ لقاءٍ فى اليوم الثانى تمنت لو امتدت الجلسة أو ضمهما المكان إلى الأبد .

وقد لاحظ هو نفسه ما فعله بها .. والحق أنه لم يحاول أن يستغل هذا الموقف المتردى .. وكان يبرر انفاقها عليه تبريرًا غريبًا جدًا ، يترك لكرامته فسحة من التنفس !

إن هذه السيدة تدفع له مقابل المحاضرات الفلسفية المدهشة التى يلقيها عليها فى ـ ليس حصة واحدة ـ حصص متصلة بلا توقيت ! هو إذن محاضر .. وهى طالبة .

تفسير لم يجر لها على بال .. فقد كانت تدرك تمامًا أنها أحبته ، وأنها لا تستطيع الحياة بدونه ، وأن هذا الحب لابد أن ينمو وأن يستمر وأن يستقر تحت سقف بيت ..

فلما عرضت عليه الزواج لم يمانع !

فقط نظر إليها نظرة طويلة جدًا .. شحنها بكل ما فى أفقه من يأس وتنازل ثم مد يده فى جيب قميصه وأخرج ٢ جنيه ومط شفتيه ولم ينطق ..

أمسكت بيده وسحبته .. فمضى خلفها صامتًا وتزوجته !

رغم اعتراض الدنيا كلها تزوجته وهندمته وأشبعته وهيأته ..

لكن الحياة ليست رجلًا وامرأة فقط .. ليست بيتًا فحسب . لابد أن تدخل به عوالمها .. لابد أن يتعرف الناس والصحاب

على الطبيعة العقلية المدهشة للرجل الذى أحبته وتزوجته رغم كل جبهات الحرب المفتوحة عليها .

وخرجت به على الناس .. ودخلت به دوائر الأدباء والمثقفين .. ثم دلفت معه على عوالم الفنانين والنجوم ..

وهى تخرج من عالم لتدخل عالمًا آخر ، مصحوبة بفضيحة !

كان الرجل يجلس فى أصدقائها كأنه المعلم المحاضر .. الأستاذ الجامعى .. حامل الرسالة التى لم يأت بها أحد . يلوى شفتيه ويرسل عينيه .. ويلقى بالبايب عند زاوية فمه ثم يطوح بساقًا فوق أخرى قبل أن يبدأ الكلام الحنجورى الرهيب !

فى البداية .. رمت أصدقاءها بالجهل وعدم القدرة على ملاحقة أفكاره .. ومع الأيام تعمدت أن تنأى به عن المجتمعات التى تثير القلق فى أعماقها ، وتفتت قرارها الخاطئ عند الاختيار .. وفى إحدى المرات قررت ألا يغادرا معًا البيت وأن يبقى إلى جوارها لا يغادرها !

وتتركه أمام التليفزيون .. يتفرج .. وتتسلل هى إلى زاوية من الشقة لتتفرج عليه ..

وتسأل نفسها : من هذا الرجل ؟!.. وكيف اختارته ؟ ولم تعجلت ؟.. وهل كان بوسعها الفراق أو الحرمان منه ؟

وفى كل قرار اتخذته كان يطيعها .. لا يجادل ولا يرفض .. إذا طلبت إليه ملازمة البيت لزمه .. إذا قررت

الخروج إلى المجتمعات والصحاب أطاعها .. لكنه لا يكف عن الكلام فى أى مجلس .

وذات مرة أحست به جاهلًا يثير السخرية .. ومن عيون الذين حولهما تكثف عليها ضغط شديد ، وبات عليها أن تتخذ قرارًا حاسمًا باترًا .. الآن .. فورًا .

إن الرجل يتحدث عن علاقة كليوباترا بأسعار البترول العالمية وأثر الحرب الأهلية الأمريكية على موازين القوى فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ثم يتحدث عن أزياء الثلاثينيات ويقترح أن يرتدى الرجال ملابس الإناث لأنه ، وقع فى قلبى أن كل رجل أنثى » !

فاض بها الكيل وأحاطت بها الفضيحة ، فهبت وسط زميلاتها وزملائها الذين ضجوا بالضحك أو الهمس .. وصوبت إليه يدها وقالت له :

ـ أنت طالق !

توقف مندهشًا ثم ردد :

ـ طالق .. طالق !

أطاعها حتى فى الطلاق .. ثم نهض وانصرف !.

فلما عادت إلى بيتها هيأت مشاعرها مسبقًا على عالم ملئ

بالفراغ بعد رحيله وخروجه .. وجعلت تناجى وتدعو : اللهم انزعه من قلبى .. اللهم كما جعلتنى أحبه .. أخرجه من حياتى إنى لا أعرف لم أحببت هذا المخلوق الناقص الفضيحة !

وكأن سماعها لنفسها قد ضاعف الألم فى قلبها وهوانها على نفسها .. فبكت حتى ابتلعت دموعها ..

وقاومت .. بعنف ..

ولزيادة درجة المقاومة ذهبت إلى طبيب نفسى استمع إليها طويلًا ثم قال :

ـ لكن لماذا تمنعين قلبك عنه ؟ .. انطلقى فى حبه مهما جرى !

ـ حبه فضيحة اجتماعية وإنسانية .. وسبة تاريخية !

ـ تذكرى أنك بقدر ما تقاومين بقدر ما تنجذبين إليه !

وخرجت من عند الطبيب ، وهى عاقدة العزم على أن تلفظ التافه من حياتها ..

وعلى ناصية الشارع الرئيسى وجدته يقف هناك .. عند نفس الإشارة .

أطرقت برأسها على عجلة القيادة مستسلمة حتى لا تنجذب إليه أكثر .. وابتسم خداها .. ورفعت كفًا صاغرة تدعوه .. وفتحت له الباب .

أطاعها .. وركب ، فلما استقر فى مقعده ، مد يده ، ففتحت حقيبتها ، ودست فيها عشرين جنيهًا !

- ١٩٩٠ -

الجبـــار

ضرب وجه المكتب بقوة حتى صرخ السطح الزجاجى ، لكنه لم ينتبه للصرخة . دفع المقعد بقوة للخلف فصده الحائط وراءه لكنه نهض . وقف وحده فى الصالة الفسيحة وقد امتلأت بمقاعد كثيرة عليها وجوه منصتة .

أحس للحظة أنه يتحدث وهم ينصتون وفى اللحظة التالية تأكد إحساسه بأنه يتحدث وبأنهم ينصتون . الآن صار مهيأ لإلقاء المفاجأة التى يعلم جيدًا أنهم فى انتظارها منذ ثلاثة أيام بلياليها قضوها فى هذه الصالة : ينصتون وهو يتكلم . جذب نفسًا عميقًا حتى أحس أنه سحب كل هواء الصالة الفسيحة ، وحتى أحسوا أنه سحب هواء صدورهم . فتح فمه واسعًا ، على مصراعيه ، حتى أحس أنه احتواهم جميعًا بمقاعدهم ، بملابسهم ، بأشيائهم ، فى جوف فمه ؛ وحتى أحسوا أنهم صاروا بلا ألسنة ، بلا شفاه ، بلا أسنان ، وأنه أخذ كل ألسنتهم وأفواههم . الآن تأكد إحساسه بأنه كل الألسنة . بأنه كل الهواء . هو وحده يتنفس . هو وحده يتحدث . هم لا يتنفسون . هم لا يتكلمون . الآن لم يعد أمامه عذر يؤجل إلقاء المفاجأة التى ستهز الكون وتزلزل العروش ، وتعصف بكل هدوء .

شد من قامته شدة انخلعت لها قلوبهم ، وهو يشد القامة أحس بأنه يستطيل .. يستطيل .. يستطيل ، طال ، طال ، طال ،

صار عملاقًا . وصل العنق وفوقه الرأس الكبير ، وفيه الفم العريض ، وفيه اللسان الأوحد ، وصلت جميعًا إلى سقف البهو الفسيح ؛ فتقوس موسعًا لها ثم انثقب يفتح لها ثم انقشع ينحسر عنها . خرج العنق حاملًا الرأس إلى الفضاء العريض بينما القدمان فى مكانهما أمام المكتب العملاق أمام الوجوه المنصتة التى فقدت ألسنتها . وهو فى جوف السماء ، تأكد إحساسه بأنه قادر أكثر من أى وقت مضى على إلقاء مفاجأته المنتظرة وأن لديه من الكمال ما يجعله قادرًا على تفجير شتى إشعاعات الطاعة فى العيون المحملقة والآذان المنصتة فى ترقب ، لاحظ وهو فى أوج انتفاخه وعلوائه أن سحابة خفيفة جدًا جدًا عبرت على سطوح جفونهم . كان يعرف أنها سحابة نفاد الصبر القديمة . كان يعرفها جيدًا لما تركته على نفسه من بصمات . الآن السحابة خفيفة جدًا جدًا لأنه قوى جدًا جدًا . الآن السحابة فقدت أمطارها وعواصفها ورعدها لأنه طويل طويل يمكنه خنقها فى سمائها قبل أن تهطل غضبًا ، على أنه لم ينس أن السحابة الخفيفة مؤشر يبعث على القلق ، لكنه تجاهل النذر بحكم قوته واستعد يفتح فمه لإلقاء المفاجأة المرتقبة . وما كاد يفتح فمه الذى فيه أفواههم حتى لاحظ أمرًا . إن آذانهم المنصتة تكبر .. تكبر .. تكبر .. صارت الآذان أكبر من الأفواه المنعدمة . صارت أكبر من كل الوجه . داخلته مشاعر فياضة بالكبر والانتشاء .. أحس الآن أنهم مستعدون لتلقى المفاجأة الكبرى . وهكذا فتح عينيه على مصراعيهما ، وفتح شفتيه

على مصراعيهما وفرد ذراعيه على امتدادهما ، وشهق شهقة شفط بها هواء الفضاء حتى خلخلة ؛ ثم قال فى صوت قوى ، يليق بجبروته :

- يا أبنائى !

ثم لم يلبث أن صمت ، وأخذ يتفرس فى وجوههم مليًا ؛ فلم يجد أدنى تعبير .. عاد يقول فى صوت قوى ، يليق بجبروته :

- يا أبنائى !

ثم لم يلبث أن صمت ، وأخذ يتفرس فى وجههم مليًا . فلم يجد أدنى تعبير .. عاد يقول فى صوت قوى ، يليق بجبروته :

- يا أبنائى :

ثم لم يلبث أن صمت ، وأخذ ...

كانوا لا يزالون ينظرون إليه ، فى وجوههم عيون ، وأنوف ، ومكان ما كان يومًا محلًا للأفواه والألسنة . إنه يراهم . إنهم جلوس . إنهم ينصتون . وأكبر دليل على رغبتهم فى الإنصات هو استطالة آذانهم .. ثم إنه قوى . قوى جدًا وأكبر دليل على قوته أنهم ينصتون ويحدقون ويتحرقون شوقًا لمعرفة المفاجأة العزيزة . صحيح أن الوجوه بلا أدنى تعبير لكن هذا لا يعنى أنهم لا يريدون سماع المفاجأة . وهكذا تهيأ

للمرة الثانية وفتح فمه بقوة وقال فى صوت قوى ، يليق بجبروته :

ـ يا أبنائى ..! سأكشف لكم الآن عن سر طالما حيركم ..

ولم يتفرس فى الوجوه يتملى أثر كلامه .. بل مضى يقول :

ـ وأنا أعلم كيف تشتاقون إلى معرفة سر القوة التى أتمتع بها .. لن أتردد فى الكشف عن سرى الخطير لحظة واحدة ..

وانطلق يتكلم ويتكلم ويتكلم والسماء تمطر والبرق يخطف الأبصار والرعد يزلزل وهو يتكلم :. يتكلم .. يتكلم . ثم سكت ونظر فى الصالة الفسيحة حيث هم : فلم يجدهم .

(واشنطن ١٩٨٦)

الحذاء الملون

الحذاء الملون

بملل وضيق صدر ، طوت أم شحته الشغالة باب الخيمة الصغيرة ، على شاطئ العريش ، وسط عشرات الخيام التى صفت متوازية أمام مياه اضطربت أعماقها بين الأخضر والأزرق ، تلطم الشط الناعم المستكين لطمات متتالية بفعل ارتفاع الموج ، ثم لا تلبث أن تلم نفسها وتلقم لسانها ، مكسوفة إلى بعيد .

إنها الساعة التى تعقب سقوط قرص الشمس البرتقالى فى خط الأفق ، حين يستوى قدوم الليل مع قدوم الفجر ، لحظة يمتزج فيها الموت بالخلق ، وجدت فيها أم شحتة همًا ثقيلًا ، ولعلها راجعت مجمل حياتها فى تلك القبسة الشعورية الخاطفة ، إذ تصحو كالنحلة من طلعة الشمس حتى الزوال ، تخدم الهوانم ، ستات مصر ، تغسل ملابس الصغار والكبار ، تدعك الغيارات جيدًا ، وتطرد حبات الرمل الذهبية الدقيقة عن الأسرة الرديئة التى اندفنت قواعدها فى عمق .

كانت سيدة الخيمة قد طلبت إليها غسل ملابس أطفالها الثلاثة ، وترتيب الحقائب الأربع الملقاة فى إهمال ، مبقورة الأحشاء ، يتدلى من جوانبها سروال أو فوطة ، أو كم قميص ، أو يستقر فوقها حذاء مشبع بالرمال !

أطفال هذه السيدة بالذات تحبهم أم شحته وتحب أصغرهم

على وجه أخص لأن فيه الكثير من على أصغر أولادها وحبة قلب أبيه ، المتمرد على الخبز البايت والهدمة الممزقة والقدم العارية .

كانت ـ مع ذلك ـ ترمقهم وهم عائدون من البحر كالفراخ المغسولة ، لهم وجوه نضرة ، وخدود تضج بالنعمة ، تتقدمهم أمهم بجسمها الثقيل ، يغرز فى الرمل ، فلا تملك إلا أن تتذكر أولادها السبعة .

إنها تراهم يعف الذباب على عيونهم ، وعلى كسرات الخبز المحنّاة بالجبن القريش أو الجبن المتاح من بقايا رواد المخيم .

وتراهم جنبًا إلى جنب مع زوجها الشاويش فتاوى طيب القلب ، رقيق الحال ، عديم الحيلة فى الرزق .

ولقد نشأت علاقة الخدمة والتربح بين أم شحتة وسيدات المخيم بسبب الجيرة البحتة ، فأم شحتة تقيم فى كشك من الصاج البنى المحروق عبارة عن مترين فى متر ونصف المتر تقريبًا ، ملحق به كشك آخر أشبه بعشة الفراخ ، يأوى الأولاد السبعة .

هذا القرب الجغرافى المثير ، فتح لها طاقة من الجنة ، فكانت السيدات يعطفن عليها ويدخرن لها بواقى الطعام فى الوجبات الثلاث من أرز ولحم وحلاوة وجبن بيضاء وأرغفة كاملة ـ أحيانًا ـ فضلًا عن فرط العنب أو شقق البطيخ .

ولقد عرفت بالأمانة الشديدة، وعفة النفس والرضا بما

قسم . فليس أكثر من جنيه أو أثنين كان يسعدها نظير غسل ملابس الأولاد ، ولقد تعجبت امرأة نحيفة من سيدات المخيم لقلة أجرها ونفحتها خمسة جنيهات وعرضت عليها عقد عمل فى القاهرة عند عائلة محترمة ـ أكثر منها !

أبرز ما كان يثير العطف عليها هو تهافت أنفاسها ، حتى لتكاد تراها تمضى وسط الخيام وكأنها فى آخر لحظات حياتها .. وأبرز السيدات اللاتى تعاطفن معها كانت سيدة الخيمة البدينة ، فقد وثقت علاقتها بها بل سألتها ، أم شحتة ، لماذا جاءت وحدها إلى المخيم وأين زوجها ، فتنهدت فى حديث امرأة لأمرأة ولعنت الأب الغائب عن مسئولياته ، يضاجع العمل ويطارد الفلوس ، فلما أجابتها أم شحتة أن هذا حال الدنيا ، سقط الحاجز الشفاف التقليدى بين البشر حين يكون بعضهم فوق وأكثرهم تحت .

وذات يوم انهمكت أم شحتة فى ترتيب وتنظيم حقائب الملابس ، وقد لفت نظرها حذاء الصغير الملون بألوان جميلة مضيئة .

خبرة أم شحتة بالأحذية ليست عميقة ، والواقع أنها تكاد تقتصر على الشباشب ، والصنادل بالنسبة للأولاد فى أكثر شهور العام تفاؤلًا !

غير أنها فى تلك اللحظة بالذات تريد هذا الحذاء . إنه حذاء

الطفل الصغير المدلل الذى يشبه ولدها . وهو فى مثل عمره . لا تعرف ماذا جرى . صار لها أسبوع ترى الحذاء لكن لا تبصره ، وإن بصرته ما وقع فى دائرة الطلب أو الاشتياق .

غير أنها رأته تلك المرة فى قدمى صغيرها الحافيتين . رأته يمضى على الأرض الحصباء بحذاء .

إن قدميه جميلتان ، بل لا تختلفان عن قدمى ابن الست هانم .

الفرق الوحيد أن لها طفلًا حافى القدمين والحظ ، بينما لابن السيدة أب ليس شاويشًا . غائب صحيح لكنه ينفق عليه .

مدت يدها وسحبت الحذاء ، وبتعجل طوته فى بقجتها الصغيرة . ثم خشيت أن تفتش البقجة فنزعته وضربته فى صدرها الضامر المختفى تحت هدمة سوداء كثيفة .

وتمنت لو عثرت على الجورب بالمرة .. لا يهم .. فإنها ستشتريه .

وانصرفت أم شحتة بما سرقت ، معبأة بذنب وأحلام ، وشعور بالخزى يتسرب من قلبها كما تتسرب المياه المالحة بين حبات الرمل لتستقر بعيدًا .

وأحست أم شحتة أنها تحمل وجهًا مكسوفًا وعينًا مكسورة ، وواجهت هذه الهجمة الضارية بصوت عال وهى عائدة وسط الرمال وحيدة : لست لصة !

ثانى يوم سألتها سيدة الخيمة عن الحذاء المختفى لأن الرمل المتقد يلسع قدمى الصغير العاريتين ! أشاحت أم شحتة واصطنعت الطرش ! فعاودت السيدة السؤال ، فهاجمتها بسؤال مضاد :

ـ فكرك أنى أخذته !؟

لحظتها قطعت المرأة أن أم شحتة أخذت حذاء صغيرها الجديد .

وتساءلت ماذا تصنع ؟ هل تواجهها بالاتهام أم تتركها للمراجعة .

غير أن قدمى الطفل العاريتين كانت منظرًا يؤلمها ، وكان لهيب الشمس المطمور فى الرمل يكوى بطن القدم الصغير .

منتصف نهار اليوم الثالث ، اقتربت منها ، وهى تنظف مائدة الطعام فى المطعم فلم تجرؤ أم شحتة على مقابلة نظرتها ، وبدا فيها شرخ .

عادت السيدة إلى خيمتها ، وقلبتها رأسًا على عقب ، بحثًا عن الحذاء ، للمرة العاشرة ـ دون جدوى ؛ بل استعانت باثنين من زميلات المعسكر ، تطوعن من عشرات سمعن بالقصة ، للعثور على حذاء الصغير حافى القدمين .

وكانت سيدة الخيمة قد أعلنت أن الحذاء غالى الثمن ، طرى الجلد ، مستورد من فرنسا .

ولم تكن ذكرت ذلك قبل الحادث .

بعدها بيوم أمسكت بكتفى أم شحتة وسألتها :

ـ أين جزمة الولد؟ أخذتها لابنك وتركت ابنى حافيًا؟!

ثم رفعت رأسها إلى سقف الخيمة ودعت :

ـ يا رب احرم اللص من نسيم الدنيا !

ويقال إن أم شحتة انفطرت بعنف من العمق ، وأن الدمع ترقرق بعينيها ، وأنها هتفت فى سرها بلوعة :

ـ بعد الشر !

وانقطعت أم شحتة عن المخيم برمته لثلاثة أيام ، وفى اليوم السابق مباشرة على رحيل الفوج ظهرت سعيدة على غير العادة ، وزالت الصفرة التقليدية الملازمة للشقيانين ، وقصدت أن تنظر إلى سيدة الخيمة وألا تطرق إلى الأرض ، بل ألقت عليها صباحًا حارًا ولاطفتها بكلمتين ، واهتمت برعاية مطالبها من ماء وخبز إضافى وخلافه على مائدة الإفطار .

لبث الجميع بقاعة الطعام حوالى الساعة ، انصرفت خلالها أم شحتة إلى الخيام ، تحت وابل من الطلبات والممازحات والسؤال عن غيابها المفاجىء .

ولقد ردت بأن أبو شحتة كان مريضًا يعانى عسر البول .

وللحظات استقر بقلب سيدة الخيمة شعور بالغصة ، ولامت نفسها إذ اتهمت إنسانة بغير دليل ، وغادرت المطعم قافلة إلى الخيمة تتهيأ للبحر بفراخها الثلاث .

ولقد أصر أوسطهم على أن يلبس المايوه الأزرق بدلًا من الأصفر ؛ فطاوعته على مضض وفتحت حقيبة الملابس الكبيرة ودفعت بيدها تحت طيات الملابس الكثيرة ؛ فإذا بجلد الحذاء الطرى بين أصابعها !

تهلل وجهها كأنما عثرت بكنز ، وداهمها شعور عات بالندم إذ ظلمت ، وقدمت الظن السيئ على الظن الحسن ونادى بجوفها صوت أن سامحنى يارب .

ثم تعجبت بعدها بلحظة :

ـ لكنى فتشت هذه الحقيبة بالذات ثلاث أربع مرات مع زميلاتى .

ثم باستسلام :

ـ المهم أنى لقيتها .

وفى ظهيرة اليوم التالى ، استعدت أم شحتة لتوديع الفوج المسافر ، ولتتسلم المفروشات والبطاطين الخفيفة الواقية من برد ليل المصايف ووسط حركة رحيل ومصافحات شاملة وبينما يئن الرجال بحمل الحقائب وتصرخ النساء من عناد

الأطفال وقد رفضوا الرحيل ، دنت أم شحتة من سيدة الخيمة ، وقبلتها ، ثم انحنت وضمت الأطفال الثلاثة إلى صدرها وحانت منها نظرة إلى أصغرهم فرأت قدميه عاريتين لا تستقران على الرمل الجمر .

وتحرك الأتوبيس .. ووقفت أم شحتة وعند قدميها البقجة الصغيرة ، وأخذت تلوح بذراع مرهقة بالأحاسيس المتضاربة ، حتى غاب الأتوبيس فى عاصفة الرمال التى أثارها خلفه .

وبغير اكتراث ، انحنت تلتقط البقجة ، وانقلبت إلى الكشك - الفرن ، وألقت بنفسها على اللوح الخشبى " غطى بكوفرتة قديمة ، الناهض على أربع حجرات عاليات عتيدات ، بينما يأتيها صراخ طفلها الأصغر ونداء ولدها الأكبر شحتة فلا يبلغان منها أذنًا .

إن أم شحتة الآن تفكر فى الفوج الجديد .. حقائب أخرى وبشر آخرون وأيام أخرى طويلة .

فلتستعد بلقمة أخرى .

وفتحت البقجة بيد كسول متراخية ، فلما انفرطت سرتها ، اتسعت عيناها وومض فيهما نور ، وهتفت بدهشة :

- الله ؟!

كان هناك الحذاء الملون .

(١٩٩١)

زهرة الحب

زهرة الحب

ذات ليلة صيفية .

رأى من موقفه بالشرفة المطلة على النيل فى الطابق الثالث عشر ، أنه صار عبدًا لها بكل معايير العبودية ، فهو يدور فى فلكها ، وهو مجرد ذرة فى ضوئها ، لا يفكر إلا فيها ، يدخر أحلى الكلام لها . يقوم وينام على كلامها . شمًا أو عطرًا . يرضى إن رضيت . يحزن إن مر بصفحة وجهها المترفع كدر أو بعض كدر . يهتز كيانه طربًا إن ابتسمت . فابتسامتها كالأغنية العذبة .

يخيل إليه أن عمره كله موهوب لها ، وأنه جاء الدنيا من أجلها . ليحبها وليفنى فى حبها ، وليكرس الـ ٢٤ ساعة لخدمتها والسهر على طاعتها .

علاقته بها .. هوان من طرف واحد .

هى الهيروين وهو المدمن .

فى تلك الليلة الصيفية التى طلع فيها القمر وصبغ وجه النيل بلون رصاصى ، اكتشف أنه بعض رجل وبقايا إنسان وتراب كرامة . واكتشف أنه لم تعد به أدنى رغبة فى المقاومة ، ربما

لأن الرغبة فى المقاومة مرتبطة مع مخزون أى إنسان من الكرامة .

رأى نفسه فى تلك اللحظة رجلًا موثوقًا إلى كعب قدميها بحبل مجدول من الذل والصد والحقارة .

وكأى عبد فى تاريخ الرق ، ومضت أعماقه فجأة برغبة تكشف فيها إحساسه عن الكرامة المسفوحة .

وضبط صوتًا يخرج من قلبه : الليلة سأقلع عن تعاطيها . سأكف عن ذكرها . وفى اللحظة التالية خذلته نفسه وراحت تسائله أن كيف يصدر أمرًا إلى عقل خائن وقلب جاسوس وجسد متمرد ؟! كلهم يعملون لحسابها ، وكلهم مجند لخدمتها ، طوعتهم وبرمجتهم على تسخيره .

كانت محامية وكان مهندسًا شابًا . الحق أنها كانت تكبره سنًا ومالًا وأصلًا .

وكان بينهما من الاختلاف ما يؤكد التضاد بين خط الاستواء والقطبين . فالواقع أنها محامية فاشلة . والعجيب أنها فاشلة ؛ فلها شخصية قوية ، ولها حضور مسرحى باهر ، وهى إلى ذلك امرأة جريئة على الحق ؛ مقتحمة للمنطق ، مستهترة بأى مقياس ، تملك دائمًا حججًا جاهزة تهز بها الحجج السائدة ، ولها لسان يذرف الكذب كما تذرف العيون دمعًا لتمرير المواقف الصعبة .

تكذب كما تتنفس ، يساعدها غناها الفاحش الموروث على أن تنتهك حرمة الصدق ، ولقد تمرغ الكذب عند قدميها كما يتمرغ الكلب الوفى يلعق قدم سيده .

ولقد كفت بالفعل عن الدفاع عن المظلومين أمام القضاء ومنصته العالية ، لأنها اكتشفت أن هناك خشبة مسرح أخرى آمن لها وأفسح ، يتوارى عليها جهلها ويختبئ نجاحها .

* * *

الشقة التى يجلس فيها الآن ، فى الطابق الثالث عشر ، على النيل ، عند المعادى ، ثمنها لا يقل بحال عن نصف مليون جنيه . مبلغ فلكى ، لا هو ولا أبوه ولا الجدود الكرام شافوه . إنها ملكها . كما أنه ملك لها . لم تكتبها باسمه ولا فكرت . لأنه هو شخصيًا مكتوب باسمها . لم يطمح هو أيضًا أو يطمع ؛ فقد اكتفى بالقرب منها ، يراها ، يلمسها ، يتنفس ما تلفظه له من صدرها .

من الظلم أن نقول إنها - فى البداية - لم تحبه .

لقد أحبته بالفعل وكانت به ميزة جديرة بالاعتبار وهى عزة نفسه . وهى ميزة ضايقتها أكثر مما أسعدتها . لأنها كلفتها مجهودًا كبيرًا فى تدميره .

لم تكن قد التقت من قبل بأحد عزيز النفس ، عينه مليانه . فكل الذين قابلتهم قبل وفاة أبيها المقاول المشهور - وبعد وفاته

على السواء ـ استباحوا شرفهم ومرمغوا كرامتهم وبانوا أصغر من السمسمة لينقربوا إليها .. إلى التركة الهائلة .

ولأنها تلميذة فى مدرسة أبيها ، فإنها تعلمت بسرعة كيف تلعب بهم وكيف تحرقهم وتسيل دماءهم ثورًا بعد الآخر ، ثم تشيح بوجهها عنهم ، وتخلف فيهم إحساسًا بأن كلا منهم جرح نفسه بنفسه .

التقت به فى موقع عمارة تنهض من تحت الأرض . كان المهندس التنفيذى للعمارة . طول بعرض بشخصية مع كثير من ثقافة الفقر ، مكدس فى ننى العيون ، منعكس فى عجرفة طارئة وتعال مسرحى .

بالاحتكاك أكثر من مرة عرفت أن معدنه طيب وأنه شبعان وأن عزة نفسه هى التى جعلته يبدى مشاعر كاريكاتيرية . باختصار أدركت أنه ابن ناس ، وإن كانوا فقراء ، ودعته للعشاء فلبى الدعوة . لكنه رفض ما بعد الدعوة . رفض الرقص والشرب . وتبين لها أن شراءه صعب وأن قلبه قلعة . وهالها أن تصمد أمامها قلعة . فقررت نسف بواباتها بالبلدوزر .. بالمال .

عرضت عليه الزواج بعد أن رسمت عليه دور البنت الغنية الوحيدة ، التى تطاردها الذئاب وتريد نهش أموالها .

بالنسبة له كان العرض أمنية ، لكنه كان قبل ذلك مفاجأة داهمة .

• • •

لاحظ وهو يقرأ ما يكتبه القلم الجاف البطئ فى يد المأذون أن مؤخر الصداق ١٠٠ ألف وأنه جاء كشاهد على العقد . لم يساوره إحساس قط بأنه العريس !

عندما وقع على العقد وقع على حكم بالمؤبد .

وحين وقعت على العقد وقعت على تنفيذ الحكم .

وبعد أسبوع من الزواج أدرك أنها صعبة الارضاء ، مستحيلة الإسعاد . بذل فيها كل وقته ليسعدها . لكنها امتدت أمامه بحرًا لا يمتلئ وكلما أفنى جهده لخدمتها ، تعالت وتسامت وشمخت لتشعره بالنقص .

وكان ذلك أول أسلحتها .

فى المقابل جعلت المال بين يديه كما الورق القابل للحرق أو التمزيق أو البعثرة . الفلوس آخر شىء يمكن أن يحمل له همًا بعد إن كانت لأجيال عريقة فى أسرته أول همومها إلى الأبد .

ومع وفرة المال والبطالة والكسل فقد قدرته ورغبته فى العمل . واكتشف أن بالحياة أناسًا آخرين مهمتهم فيها ألا يعملوا ووظيفتهم الوحيدة أن يستمتعوا ، أو يكرسوا غيرهم خدمًا لهم .

وذات ليلة ، مثل هذه الليلة الصيفية القمرية ، ضاقت نفسه إذ رأى أن ما تبقى منه لا يصلح لاحترام . فقرر أن يواجهها

وأن يشكمها وأن يجعلها ترى بوضوح من الرجل فى البيت . والحق أنها فى الفترة السابقة على ذلك القرار كانت تجاوزت كل معقول ، فأطاحت بأى ارتباط به ، ونسفت أى حساب له ، وصار بالنسبة لها مجرد رجل مقيم بالبيت ، إن اشتكى ألقمته مالًا أما هى ، الزوجة . المرأة ، فصارت له أمنية ، بلوغ الهيمالايا أيسر !

قرر إذن أن يشخط وأن يأخذ موقفًا . وحاول وكانت النتيجة أنه تأكد أن لا فرار له منها وأنه بالفعل واقع تحت سيطرتها وأنه بالفعل مدمن لها ولإهاناتها ولتحقيرها ، وبات يؤمن بأن فى كل إنسان جانبًا يجب أن يحقره الآخرون ويجب أن يهينه الآخرن وأنه بهذا المعنى إنسان عادى جدًا ولابد له أن يتقبل الوضع حتى يشفى أو يموت .

قال لها وهو يمط رجولته ويستنهض عزيمته القديمة :

ـ معدتش فى راجل تحبيه أو تكرهيه . انتى قضيتى على كرامتى .

ـ أنا مقعداك فى بيت طويل عريض ع النيل معزز مكرم مش ناقصك حاجة .

ـ ناقصنى حريتى !

ـ الباب مفتوح .

ـ الباب مقفول .

فاتجهت إلى باب الشقة وفتحته وقالت له :

ـ مفتوح أهه !.. اتفضل !

نظر إليها طويلًا حائرًا ، حيرة أى سجين ، ثم أطرق ببصره حسيرًا كسيرًا . ولم ينطق .

لا فرار منها إذن . لا خلاص . قد سكنت خلايا المخ والفؤاد . تكونت لها بؤر اعتياد فى سايتوبلازم الخلايا !

عبودية لم ترق إليها عبودية عنتر أو جميل أو روميو .

فما جزاء السجان ؟!

سأل فى نفسه ، فأجاب شخص آخر برز من تحت ركام الانقاض :

ـ القتل !

ـ أفأقتلها ؟

ـ أقتلها .

ـ إنها على قيد الحياة وأنا ميت ، فما بالك إن قتلتها .

ـ لن نزيد عن ميت ولن تنقص عنه !

ـ سأقتلها إذن .

ـ هيا . اقتلها .

ـ سألقى بها من النافذة . من هذه الشرفة سألقى بها إلى جوف النيل . يبتلعها . يخلصنى منها . يحررنى .

ومن موقفه بالشرفة المطلة على النيل فى الطابق الثالث عشر قذف بها ، دفع طيفها بعنف ثم مضى خلفها .

(١٩٩٠)

الناقص

الناقص

من النجمة استيقظ أبو عبد الله .

والحق أنه لم يكن نائمًا ليصحو ، إنما استأنف حالة التأهب الشديدة التى له عليها شهران .

فرك عينيه ، آلمه احمرارهما اللاسع ، بفعل الفكر والقلق ، ومسح وجهه النابت اللحية فى إهمال ، ومضى يقلب بقايا البصر فى زوجته السمينة ، المحمل ، الممددة كجثة بجواره فى السرير العالى القديم .

السرير العالى القديم ذاته الذى زفت إليه وفيه قبل أربعين عامًا .

كان ظهرها له ، فأدام النظر ، وللحظات رأى الظهر جدارًا ؛ فلا عجب إذن أن جرى له الذى جرى منذ شهرين تقريبًا .

لم يرفع البصر عنها ، ظل يحدق فيها ، حتى انقلبت إليه على جنبها ، فترجرج جسدها وأنّ السرير ، وانفرط كرشها أمامها حتى بدا كجزء موصول .

وكأنما أحست بلفح نظراته ، ففتحت عينين ثقيلتين مطمئنتين ، استقبلتا وجومه وتجهمه ، غير أنها لم تشأ أن تفتح من جديد الموضوع ذاته الذى اشتجر بينهما لشهرين .

قالت فى أعماقها البعيدة «لعن الله من يقلب فى النار الراكدة» !

وللحظة اعتراها خجل وأحست بتضاؤل ، ففى نظرات زوجها إتهام وقرف ، ولمت شعرها سريعًا ومسحت عينيها لتدارى العماص فى الزوايا ، وجعلت تدخل فى بعضها ، وهى تسأله بصوت مشروخ من أثر التقادم :

ـ برضه راكب دماغك . مفيش فايده فيك . نام يا خويا ، ربنا يهديك ، إهمد وريح جتتك ، تعبتنى وياك .

ـ نفسك ومنى عينك أفضل على دى الحال .

ـ يا أبو عبد الله ربنا يخليلك عبد الله ، بص لولاده تشبع .

ـ أبص لنفسى . ربيتهم وكبرتهم . عايزين منى إيه تانى ؟

أنت نفسك عايزه إيه منى ؟

ـ أنا مش عايزه منك حاجة . كتر خيرك . أنت اللى عايز وأنا معنديش . أنا ست كبيرة ومبقتش زى زمان .

ثم وهى تمازحه :

ـ دا أمر الله يا خويا !

ـ أخوكى أخوكى . خلاص ما احنا بقينا إخوات .

كان ارتدى البالطو الرصاصى المقلم فوق الجلباب الصوف ، وتهيأ للخروج ، حين استدرك :

ـ لأ . مش أمر الله . ربنا مش ممكن يذل راجل فى سنى !

ـ أما أقوم اعملك الاصطباحة .. تشق ريقك .

ـ شفيه إنتى . سلام .

(٢)

سلام يا امرأة . يا جفاف . يا موات . يا عمرًا قديمًا وبطاريات مالحة . سلام . كل الذى تريدين بيننا هو السلام ، والذى يطير صوابى إصرارك على إننا إخوان . لا لسنا بإخوان ، وتحتجين بالله والله يا امرأة لا يأمر بذبول رجل حتى لو كان فوق الستين . إنه ورأسى أبى عمل معمول بحذق . لعلنى مربوط على ذيل قرموط ، لعلنى ممسوك . أو لعلنى ميت لبثت فيه بعض الروح .

لكن من المؤكد أننى رجل ناقص .

له شهران وهو ناقص . شهران وهو مشرف على الجنون . فجأة أحس أن شيئًا فيه يموت ، كتم سره فى قلبه ، ووضع فوق قلبه ألف لوح أسمنت ، حتى لا يطير السر ، ويعرف الناس المخبوء ، ويصير طعمه للألسنة ، يستهزئ به أصدقاؤه ، وتتغامز عليه النساء ، وتستخف به زوجته ، فالذى وقع له أمر غير مسبوق فى تاريخ عائلته ، لأن أباه مات فى الثمانين دون أن يفقد قوته ورجولته ، ولو سأل أحد زوجاته الثلاث ، لقلن والخجل يعصف بهن إن المرحوم كان عادلًا !

فماذا جرى له فى آخر الزمان ؟ وما الفضيحة وهوان الذات ؟

وقع الحادث الذى زلزله ذات ليلة . كان لا يقرب أم عبد الله إلا فى دورات متباعدة . ربما نسيها ونسيته بالشهور ، لكنه كان مطمئنًا إلى قدرته .

فلما التمسها ودنا منها صدت عنه وأمتنعت .

وكان صدها وامتناعها أحد عوامل الجذب إليها ، غير أن صدها تلك الليلة لم يحرك فيه خلية واحدة مشتاقة ، فتوجس فأمعن فى التجريب ، وكلما تكلف الاحساس أفلت منه العزم ، فتأكد لديه أنه صار رجلًا ضعيفًا .

هذه أول مرة يكون فيها أبو عبد الله رجلًا ضعيفًا . لم يمرض فى حياته . لم يذهب إلى طبيب ، لم يهمل فى صحته ، لم يأكل أبدًا طعامًا خلا من اللحم أو السمك . كان يلهط السمن البلدى بالكوب إثر الكوب وصحته وعافيته مضرب الأمثال .

وكان وجهه الذى يكبّ دمًا علامة قاطعة على أن الرجل يجدد حيويته ، ويعتبرها مصدر فخاره الرئيسى ومنبع رجولته الحقة .

لكنه تلك الليلة مات فيه المصدر وسقط المنبع ، وتحسس نفسه فإذا هى نفس رخوة ، فقدت اباءها وعزمها ، فانشرخت

وتناثرت وانكفأ عليها يلملم النثار والشظايا ، ويمسح دمعًا عرف من مذاقه أنه دمع الذل .

كان يرفع عينيه إلى السماء وفيهما كلام كثير ، وقبل أن ينطق ترتجف شفتاه ويغمغم «لما يا ربى هزأت بى فى الكبر ؟» وكان وقع الكلمات على نفسه عظيمًا وأليمًا ، وبالذات عندما ترن فى عمقه كلمة «الكبر» فيبكى ويرتج جسده البدين .

(٤)

أم عبد الله هى السبب .

لا سبب سواها . إنها كفيلة بقتل همة الجمل .

امرأة باتت هى العادة وهى التكرار . هى دوران الليل والنهار . بمجرد أن أنجبت عبد الله تحولت من امرأة إلى أم . من سن الخامسة والعشرين لسن الستين وهى أم . كانت متقدة ، ومع الأيام انطفأت ، حفظت خريطتها وعرفتْ معالمها .

وصرت أمشى فيها كما يمشى الحمار العارف بالمكان . لم آبه لشىء أبدًا كدرنى . هاجمتنى أيام ضعف ، غير أنها بقيت مجرد أيام ضعف . لم تمتد أبدًا لشهرين ، حرثت فيهما نفسى وفراشى ، وأنا بعد مسروق مسلوب !

(٥)

عندما وقعت الواقعة لم يصدق ، وكان يخلو إلى نفسه بالحمام ويراجع كيانه . وأحيانًا كان يعرض جسده فى مرآة

صغيرة قديمة ؛ فلأول مرة رأى الشيخوخة ورأى الزمن . لكن مال الشيخوخة والرجولة . إن الله خلق الرجولة لتموت بدفن الرجل ، فكيف به يدفن وهو على قيد الحياة ؟

ثم هتف «من أمر بهذه الكارثة ؟» وقد أغمض عينيه فى عذابهما الممض . لو كان الهدف ألا يقرب زوجته ، فهو مستعد ألا يقربها ، فقط يتمنى لو عادت إليه عزيمته . تعود إليه لاستكمال الذات . إنه ذات مبتورة ، وستلبث فى عذاب ، تنشد الاكتمال حتى تعثر به ، أو يعود إليها .

(٦)

الصف ، جنوب القاهرة .

وصل من شبرا إلى الصف فى ساعتين . نزل من الميكروباس الهلكان ، وسأل نفرًا عن الشيخة لطفات ، فألف نفر ونفر دلّوه ، وألف نفر ونفر عرفوه .

إنه مثل غيره ، ممن يأتون إلى البلدة باحثين عن «بقيتهم» فيها .

ومثل كل الذين سبقوه ، سيعود محملًا بالوعود والآمال وحجاب وشبكة من الخيوط المتينة ، تعلق فوق ملابس الداخلية مع قطعة رصاص فى حجم القرش !

استقبلته لطفات بحنان لم يعرف له مثيلًا . غمرته بموجات متتابعة من الطمأنينة والبخور ، وكشفت له عن اسم أمه وبرجه ويوم مولده ، واسم زوجته .

رقته ومسحته وطمأنته وخزقت جسم عروسه من الورق ثم أذابتها فى ماء وأشربته !

وألقت إليه بعينين فرعونيتين قديمتين ، فغرق فى قرون وحقب ، وفى لحظات تحرك فيه الموات .. للحظات ؛ فهتف من صميمه : يا الله !

وهو خارج مدت يدها بشبكة من الخيط المتين ، وقالت : شع الحجاب فى الصدر ولا تخلع الشبكة حتى تقرب أم عبد الله .

قال هامسًا ممتنًا : حاضر . حاضر . حاضر .

ورفضت أن يعطيها مالا .. حتى خاف غضبتها .

(٧)

من الصف إلى شبرا وصل فى ساعتين ونصف . ولو كان مشى على قدميه لبلغها فى عشرة دقائق !

طالعت أم عبد الله وجهه بآلاف الأسئلة وتوقعت تسليمًا وإيمانًا ، غير أنه جذبها إليه بعنف ودفعها إلى حجرتهما .

أخذت المرأة على حين غرة ، وكرهت أن تساق ، ونفرت من هجمته وارتابت فى قواه العقلية ، وعكس وجهها غيظًا وانصرافًا ، فانفصلت عنه وألقت بالجسم الثقيل المكدود إلى الكنبة تحت النافذة أمام السرير فطرقعت قوائمها تحت الثقل .

أما هو فكان فى لهاث وتعب ، وأسفرت هجمته عن هواء بارد لا حول له ولا قوة .

ونكس كلاهما رأسه . وحلت فى المسافة بينهما جثث كثيرة من السنين التى مرت بينهما ، وأيقن الرجل أن دورة الزمن هى عدوه المتجسد فى هذه المرأة . أبشع ما يكرهه فيها هذه اللحظة أنها بحق تجسد هذه الدورة . وأبشع ما يمقته فيها هذه اللحظة هو تسليمها المطلق بأن عقارب الساعة أسرع منها ، وأنه لا يحق لها اللهاث بعد الآن . لكن ماذا يفعل وكل خلية فى جسده تدق بالحياة ، ترتجف بالاشتهاء والشوق ، حتى إذا لمسها باخ وخار وانتكس .

أم عبد الله هى آخرتى على الأرض . هى ذلى وهى نقصى ، فلأتخلص من الذل ومن النقص . لمى شعرك يا امرأة . لمى عمرك . وانسحبى من حياتى .

وسمعها تقول والصوت قادم من سحيق :

ـ بهدلتنى فى السن دى يا أبو عبدالله . الله يسامحك . شوف لك صبية !

ورنت الكلمة الأخيرة فى سمعه هازئة قاسية .

(٨)

من النجمة استيقظ وركب المترو إلى حلوان ، ومن حلوان أخذ الميكروباس إلى الصف ، وفى الساحة المتربة نزل واتجه

من فوره إلى منزل لطفات . لكنه لم يكن وحده الذى جاء . طرق الباب طرقًا خفيفًا لطيفًا مستأنسًا ، لكن طرقات رجل آخر كانت أقوى .. رجل آخر قطع معه الرحلة ذاتها دون أن يشعر به .

وفتح الباب صبى ثم اختفى فى سحائب البخور والغموض . تبادل الرجلان الأنظار فى ارتياب ، فلما شملا المكان بنظرة تفقدية وجدا خمسة رجال متحلقين فى صمت وجمود فاتخذ الرجلان مكانهما .

وأحس أبو عبد الله فجأة أنه فى حرج ، فطارد إحساسه حتى صفت نفسه وتعلقت عينه بالباب المغلق أن تهل منه لطفات . هلت لطفات ، فما أن رأتهم حتى جزعت ، وهتفت فى استنكار :

ـ جيتولى تانى ؟ ... وكلكم ؟!

(١٩٩٢)

ماشي الحال !

ماشى الحال !

ـ ازى الصحة ؟

ـ الحمد لله !

ـ كيف الأولاد ؟ وأم الأولاد ؟

ـ ماشى الحال . ازى صحتك أنت ؟ وحشتنى .

ـ وانت والله !

ـ كيف الأولاد ؟

ـ ماشى الحال . إزى صحتك أنت ؟ وحشتنى كتير .

ـ آهو !

ـ مالك ؟

ـ نحمده على كل حال . الواحد حيعمل إيه ولا إيه ولا إيه . يلاقيها منين ولا منين ولا منين . نحمده على كل حال .

ـ ربنا يصبر قلبك وقلبى .. آدى حال الدنيا . يوم فوق ويوم فى سلسفين الأرض !

ـ يا أخى عمرها ماجت معانا فوق . كله تحت تحت تحت وآدينا راضيين !

ـ وإن مارضيتش يعنى حتعمل إيه لا مؤاخذة ؟

- ح عمل إيه .. حاقول الحمد لله على ما بلانا .

- الحمد لله .. مش لوحدك وحياتك .. وكل الناس اللى أنت شايفها رايحة وجايه قدامك فى الشارع دول مجرد مناظر . بُص كويس فى وشوشهم حتلاقيهم مناظر . دقق فى عنيهم حتلاقيهم مرضى وحزانى . الحمد لله . الولد ابنى .. الكبير المهندس اللى كنت بتقعده على رجليك وتهشتكه بالساعات .

- ياما دلعته وهشتكته وياما عملها فى حجرى .. أخباره إيه ؟.

- الحمد لله . ماشى الحال . الولد اتجوز ومن يومها مدخلش بيتى ولا بيسأل فى أمه . سنين طويلة مزرناش غير يدوب تلات أربع مرات .

- طب ده أرحم م اللى راح اتجوز من ورايا أنا وأمه وإخواته ، وخد مراته وسافر بره .

- راح السعودية ؟ بعت لك عقد ؟

- لأ . راح استراليا !

- بيقولوا بعيدة قوى .

- آخر بلاد المسلمين !

- وإيه اللى حدفه الحدفة السودة دى .

- بخته ونصيبه . كله مكتوب والحمد لله .

- ويا ترى مبسوط ؟

- ولا مبسوط ولا حزين .

- امال إيه ؟

- معرفش ! قلت لك معرفش !

- ليه ما بيبعتش ؟

- لأ . ما بيبعتش !

- يا ولداه .. زمان أمه حتموت .

- أمه بتموت . جالها السكر من الشوق والقهر .

- انسوه . اللى ينساكم انسوه .

- يعنى أنت نسيت ضناك ؟

- نفسى أقدر أنسى انه جانبى هنا فى شبرا ولا يزورنيش ؟

- خلاص .. يبقى ذنبه أكبر . إزى الصحة ؟

- الحمد لله ! الدكتور طمنى امبارح وقالى ان الشريان التاجى مش خطر طول ما أنا محافظ على صحتى . قلت له إزاى يادكتور أحافظ على صحتى قالى ما تزعلش نفسك . قلت له إزاى الواحد مايزعلش نفسه .. هو فيه حد بيحب يزعل نفسه ؟

- آه .. قال لك إيه .. قال إيه ؟

ـ قاللى ماتزعلش نفسك وبس ؟

ـ أما حتة وصفه .. لازم تعمل بيها .

ـ آدينى باعمل بيها .. حتى أول ما خرجت من عنده نديت تاكسى تاكسى ولا ردش على التاكسى . بعد نصف ساعة وقف تاكسى وقاولنى على تلاتة جنيه من باب اللوق لشبرا . ركبت وأنا بهرى فى نفسى وآكل فى بعضى . مش قادر أقف ومش قادر أوافق على المبلغ . ركبت وقلت يحلها الحلال .

ـ وبعدين .. عملت إيه مع السواق لما وصلت ؟

ـ أبدًا ضربنى فى عينى بالبوكس . لعنة الله عليه .

ـ آه .. وأنا من ساعتها ظالمك ؟

ـ ظالمنى ؟.. ليه ؟

ـ أنا قلت أم العيال عادت لعادتها القديمة ؟

ـ آه .. ياراجل . دانت قلبك أسود قوى .. قصدك يعنى يوم ما ضربتنى فى عينى وهى زعلانه .

ـ وضربتنى أنا كمان عشان بحوش بينكم . بزمتك فيه واحدة تضرب جوزها وصاحبه بغطا حلة .. طول عمرها مفترية .. الله يقدرك عليها . مستحملها إزاى؟

ـ خلينا فى موضوع التاكسى .. متخرمش !

ـ خلينا ياخويا خلينا مش ح خرّم .

ـ أحسن من التقليب فى الماضى ونبش ٣٥ سنة من الجثث !

ـ أحسن برضه .. قل لى بقه .. كمل لى اللى حصل .. ضربت سواق التاكى لما ضربك ؟

ـ أبدًا .. قعدت ازعق وازعق لغاية ما الدم طفح من بقى وعروقى نفرت وبقى وشى زى الديك الرومى والناس وقفت تتفرج تشوف راجل بيموت حتة حتة من حرق الدم !

ـ الحمد لله .. جت سليمة وما انفجرش الشريان .. بس ده مايساويش جنب اللى حصلى من يومين . رحت اشترى تذكرة من السكة الحديد . وقفت فى الطابور زى المحترمين مستنى دورى ، يقوم ييجى واد صايع فتك ويخش على الشباك . أنا راقمه من ساعة ما جه . عمال يتمحلس ويتودد ومحدش عبّره . وهوبا مرة واحدة راح هاجم على الشباك وكأننا نسوان ! دمى غلى فى عروقى . غلى قوى . حسيت ان خراطيمى كلها بتتقلب من شدة ضغط الدم فيها وسألت نفسى سؤال واحد ملقتش إجابة عليه . هو الواد ده شايفنا عمى ولا حمير ؟ وإذا كنا مش عمى ولا حمير فليه بقه بياخد دورنا ويسرق وقتنا ؟ مسكته من قفاه وإيدى ماتت على قفاه ولحظة يا خويا وبصيت لقيته واخدنى على ضهره وراح رامينى على الأرض !.. الناس اتلمت وصوتت . واتلمت وحوطتنى وأنا

مرمى على الأرض مغمى عليا ، شايفهم من بعيد أشباح وعفاريت ، كاتمين الهوا وقاعدين على صدرى . إلا ما حد فيهم سقانى كوباية ميّه . قعدت أقول ميه ميه وهمه بيمصمصوا شفايفهم ، صحيح شتموا ابن الحرام لكن سابوه وسابونى مرمى لغاية لما فقت لوحدى .

ـ أحمد ربنا إنها عدت على خير ..

ـ هو اللى حصل ده فى نظرك خير ؟

ـ آه .. الحمد لله .. خير . مش أحسن ما الواد كان غرز المطوة فى بطنك !

ـ لا هو ده اللى ناقص .

ـ ولا كان قطش لك مناخيرك .

ـ يا حفيظ .

ـ ولا كان جاب لك كرشك قدام عينيك تحوشه ما تحوشه بإيديك .

ـ تف من بقك يا أخى .. أنت لسانك ماله النهاردة منقوع فى النكد .

ـ أنا بس عايز أقولك انك محظوظ وان ربنا بيحبك وما جراش لك اللى جرالى .

ـ جرالك أنت ؟.. بالمطوه ؟

ـ آه .. شفته فى الاتوبيس بيلزق نفسه فى ولية ياريتها صبية !

ـ يا ريتها صبية ؟

ـ وليه عدت الستين . غلبانة .

ـ يا ريتها ماكنتش غلبانة !

ـ الولد النطع .

ـ كان ولد برضه ؟

ـ كان راجل قد العجل فوق الثلاثين .. لزق نفسه وراها ومش عايز يتعتع .

ـ يتعتع إزاى ما هو مبسوط ؟

ـ بصيت له بصه . بص لى وزغر لى وهددنى بحاجبه .. ولما قربت منه لمحت نصل السكية بيبرق ومقربه من بطنى .

ـ خفت طبعًا ؟

ـ سألت نفسى سؤال . قلت ياواد .. الولية ساكتة والعجل مبسوط إيه بقى اللى مزعلنى أنا .. ليه أضحى ببطنى فى سبيل مؤخرتها !

ـ يخرب عقلك ! والله منطق يجنن . أكيد البطن أهم من المؤخرة !.. وبعدين .. عملت إيه ؟

ـ ولا حاجة .. ابتسمت له وكتمت غيظى فحميت بالتاجى بينقح على فى صدرى وحسيت بسيخ حديد فى ضهرى والعرق البارد بيرشح فى كفوف إيديا .. والحمد لله ربنا ستر .

ـ الحمد لله ربنا ستر .. لأ بسيطة .. واللى يعيش ياما يشوف . أنا رايح العباسية وبقول ربنا يسهل .. أصل واحد قريبنا جابوه م البلد وموصيينى عليه أزوره وأشوف طلباته . شاب ياحبة العين كان ملو هدومه . قعد فى الكويت خمس سنين وقعدت مراته فى مصر ثلاث سنين . السنتين اللى قعدتهم فى الكويت خدت اللى وراه واللى قدامه . برضه كان أعمى ماشفش الجشع بتاعها . كان بيحبها ..

ـ تعالى كده أحسن العربية جاية بسرعة علينا .. أنا عارف الناس مسروعة ليه وعلى إيه .

ـ ربنا يستر .. بقولك كان بيحبها . قعد يبعت لها اللى وراه واللى قدامه .. وقعدت هى تبعث له كلام حلو فى الجوابات .. وزارته مرة ولا اثنين فى الكويت وطمنته وإديته الأمان . وفتحت حساب باسمها وحطت الدينار على الدولار والدولار على الريال وعرفت الأخضر والبمبى والبنى وبنت عمارة !

ـ ولما رجع ؟

ـ لما رجع .. فتحت شراعة الباب وقالت له معرفكش !

ـ قالها إيه ؟

ـ قال طبعًا إنه جوزها . قالت له أنا خفت على نفسى الفتنة أصلى صغيرة والقاضى طلقنى طلقة بائنة . وقفلت الشراعة واستأذنت خايفة أحسن جوزها الجديد زمانه جاى !

ـ الحمد لله جت على قد كده .. العباسية برضة لسه أرحم من ترب الغفير .

ـ آه .. طبعًا أحسن من ترب الغفير .

ـ إيه .. طيب أسيب بقه .. والنبى تسلملى على ولادك وتخلى بالك من صحتك .

ـ ما تيجى نشرب فنجان قهوة على القهوة القريبة دى .

ـ وماله .. إحنا ورانا إيه !

ـ تعالى .. تعالى . [يذهبان] .

ـ تشرب إيه . قهوة ؟

ـ أنا شارب من كيعانى .

ـ اشرب كمان .

ـ إشرب ياسيدى .

ـ اتفضل القهوة .. اتفضل القهوة .. اتفضل . الله ؟ إنت ما بتردش عليا ليه . يا جدع ياحاج . ياناس . ياعالم . حوشو . الراجل كان صاحى دلوقت . كنت لسه بكلمه . لسه حالا كنت

بكلمه . لسه حالًا قايلى إنه شارب من كيعانه . بالسرعة دى ؟. النفس اللى خرج مارجعش . لسه والله قايلى إنه شارب من كيعانه .

شخص : يبقى خلاص . احمدوا ربنا . الحمد لله ربنا ريحه . هوا احنا نزعل من ربنا لما نتعب ونزعل منه لما يريحنا . قولوا الحمد لله !

ـ الحمد لله . إزى الصحة . كيف الأولاد ؟

ـ آهو !

ـ مالك ؟

ـ أبـدًا والله . أنـا كنت كويس . بس مـاشى الحـال يا عبد العال . ماشى الحال . بيقولو السكر مش سايب كبير أو صغير .

ـ ماشى الحال . ماش الحال !

رواد المقهى : ماشى الحال . ماشى الحال .

١٩٩١

نوع من الحب

نوع من الحب

(١)

كان فى مكتبه ، يراجع الأوراق المهمة المتعلقة بخطة الإنشاءات الهندسية الجديدة ، حين رن جرس التليفون . بإحساس المحب عرف أنها زوجته . كان دائمًا يميز جرس تليفونها عن أى رنين آخر . بحرارة المشتاق التقط برشاقة سماعة التليفون وقال :

ـ آيوه ياروحى !

ـ اسمع .. أنا سايبة البيت دلوقت !

ـ على فين ؟

ـ أخدت شقة جديدة !

ـ قصدك إيه ؟.. مش فاهم .

ـ لما ترجع البيت تلقيه فاضى حتفهم . يمكن تفهم لأول مرة فى حياتك !

(٢)

فى البيت فهم بالفعل .. لأول مرة فى حياته . لم يجد شيئًا يجلس عليه . الشقة مهجورة وقد كانت عامرة . مطفأة وقد كانت مضاءة . ساكنة سكون القبور ، وقد كانت صاخبة بعصافيره الثلاثة ، لا مقاعد لا فراش . لا بوتاجاز . لا أثاث . لا شىء على

الإطلاق. حفنة أشياء صغيرة مبعثرة هنا وهناك. نثار من صور. إنها صور تجمعهما أو كانت تجمعهما.

فى مكان بارز على أحد الجدران وجد ورقة معلقة إلى المسمار الذى نزعت من عنقه لوحة زيتية قديمة كان اشتراها لها فى مناسبة خاصة.

فى الورقة قالت له فى ستة سطور:

«لا أستطيع أن أمضى فى خداعك حتى آخر الشوط. هربت معه. لن أعود إليك. أتمنى أن تحس بالمشاعر نفسها التى استبدت بى ودعتنى لهذه النهاية يمكنك رؤية الأولاد بعد الاتفاق على الترتيبات الخاصة بذلك عند محام».

سقط مغشيًا عليه.

ملقى على الأرض العارية. دموعه على خده. لا يصدق. بيد ثقيلة اتصل بصديقه. بعد ربع ساعة جاء الصديق وزوجته. قالا له إنهما كانا يعرفان أن ما جرى كان مؤكدًا وقوعه! توسلا إليه أن يهدأ.

لم يهدأ. حالة بكاء وذهول تعصف بكل كيانه وترجه رجًا! أخذ ينتحب وعيناه مثبتتان على الأرض. جلسا بجواره إلى الأرض. انصرف عنه صديقه وجاء إليه بعد قليل بعلبة لبن محفوظ. أمره أن يشربها لتحميه من القرحة!

قال له:

- إنها لا تستحقك!

قالت له:

- المهم صحتك!

قال لهما:

- كنت أحبها.

قالا له:

- لم تكن تحبك. لم تكن!

قال لهما:

- ماذا أفعل الآن؟ بيتى وأولادى ضاعوا!

- يجب أن تهدأ حتى تفكر.. لابد من مغادرة هذا المكان.

(٤)

جاوزت الساعة العاشرة مساء. يشعر فى أعماقه انه تعرض لعملية نصب من الطراز الأول: لم يكن يعاشر زوجة. كان يعيش مع نصابة!

ولأن الموقف الآن هو رهان على آدميته وعلى مجرد وجوده حيًا وعلى صحته. فإن أول الواجبات أن يغسل الخطة

وأن يحافظ على صحته، والحفاظ على الصحة يقتضى بناء خطوط دفاعية حصينة تقوم على مبدأ مهم وحيوى هو طرد الألم من بؤرة العقل والقلب ونبذه إلى الهامش!

وهل ذلك ممكن؟

كان ممكنًا بالنسبة إليه. طرد الألم ومضاعفاته والصور السافلة إلى هامش الشعور. وبدأ بقدرة غريبة يرى ما جرى كأنه واقع لجاره!

وكان هذا هو أول ما نجح فى تحقيقه: أن يحيد الأزمة رغم اشتعالها فى جسده هو شخصيًا.

وبعد أن أصبحت هناك مسافة بينه وبين الأزمة صارت قدرته على التفكير أعظم وأعمق.

وشاهد صديقاه هدوءًا غريبًا على وجهه. شجعاه عليه. وطلبا إليه أن يستنهض صبره وإيمانه بالله. أطرق رأسه وقال لدى من الصبر والإيمان ما يكفى لعبور هذه المحنة.

(٥)

ومرت الأيام..

ونحت إلحاح مستمر اعترف له صديقه باسم مختطف زوجته. كانت المفاجأة القاصمة أنه صديقهما الثالث العائد لتوه من الخارج.

صرخ..

- لكنه متزوج!

- هذه لعبته. والأدهى أن زوجته وضعت يديها فى الشق وحارت فى أمره!

- وماذا يفيده أن يخرب بيتى؟

- إنه لا يقصد أن يخرب بيتك.. يقصد فقط أن يثبت قدرته على حيازة ممتلكات الغير!

- أريد أن أراه. الآن فورًا سأمزقه! أين عنوانه؟

- لا أعرف. صدقنى لا أعرف.

أشفقت عليه زوجة صديقه. قالت له:

- العنوان فى المهندسين.. شارع صبحى.

(٦)

طرق الباب بهدوء مستقطر من ثلج القطبين!

فتحت امرأة جميلة باهرة الجمال! فوجىء بها تفسح له وترحب.

سألها مندهشًا.

- هل تعرفيننى؟

- بالتأكيد.. اتفضل يا باشمهندس على! عصفت الدهشة بوجهه وأحس كأنه اقتيد إلى فخ من الحيرة.

- إجلس. قهوتك سادة؟

- لو سمحتى.

عادت بالقهوة، قالت:

- أنا وأنت فى خندق واحد! زوجى وأنا أعرفه. لكنه يعود إلى فى كل مرة. ترى. هل تعود إليك زوجتك فى كل مرة؟

طعنته وأوغلت فى الطعن، تململ ومسح العرق من جبهته وحاجبيه.

ثم قال فى صوت مختنق:

- سأقتلهما.

- لا داعى!

- يدهشنى هدوؤك يا سيدتى!

- ويدهشنى أنك تريد قتلهما. إنهما لا يستحقان. ثم إن زوجتك ستعود إليك قريبًا. فقد اتصل بى زوجى أمس وتوسل إلى كالعادة طالبًا الصفح والعودة إلى البيت. إنه معتاد على ذلك لسنوات.

- وهل تعرف زوجتى أنه عائد إليك؟

- بالتأكيد لا!

(٧)

بعد ٥ دقائق دخل الزوج الآخر.

تواجه الزوجان. لدقائق تبلد شعورهما. ارتبكت الزوجة لم تدر ماذا تقول. بعد دهر. قالت للزوج المطعون:

- هذا هو قاتلك ياسيدى.. إنه أمامك.. صديقك. فافعل ما تشاء!

لم يرفع الزوج الآخر عينيه عنه.. ورأى فى جمود مشاعره ما ينذر بعاصفة غير أنه لم يكترث.

وقال فى نفسه إن الحل الوحيد هو إطباق الفم!

سأله الزوج:

- لم فعلت بى هذا ياصديقى.؟

- هى التى فعلت. لو أنك مكانى ما ترددت! ادخر انتقامك لها!.

(٨)

غادر البيت مهزوم الرجولة والكرامة. مضى مطرقًا ونيله بين ساقيه!

عاد إلى بيته، وجلس فى الركن على الأرض. حرص على أن تبقى الأنوار مطفأة. راجع فى نفسه مرات الغياب التى

برزتها وتقبلها منها ، وقال فى نفسه إننا فى الحب نصدق كل الأكاذيب ونرفض ما هو واضح للعين والمنطق . الحب هو الكذب !

وجاء بورقة وقلم وجعل يكتب قصة علاقته بها . ولفت نظره أنها علاقة من طرف واحد . حب مستمر منه واستنزاف مستمر منها ، وصار لها بمثابة ممول فقط لا غير ، مسحوب من قفاه وكرامته على كل بنوك الأرض !

وأحس بوحشة شديدة .. وللحظة داهمه شعوره أن أولاده ليسوا معه .. وأنه يفتقدهم بعنف فبكى .

فى اللحظة ذاتها أحس بصرير مفتاح يدور فى الباب . تعلق بصره بالباب يفسح شيئًا فشيئًا عن وجهها .

دخلت بقدمين مهتزتين . علق بها بصره وزلزله ارتباك . أما قلبه فسقط فى بئر سحيقة .

وقفت أمامه وطيف دمعة يحوم حول الحدقة .. نهض إليها ووضع كفه على كتفها وسألها بصوت شبه باك :

ـ خلاص ؟ أين الأولاد ؟

ـ بالباب .

مضى إلى الباب . أخذهم فى حضنه . دخل بهم وأغلق الباب .

المعلم

الممـــلّ

والله كئيب وممل ..

كئيب بكل معايير الكآبة والملل .

إنى أرثى لها حقًا . وأعجب لما يدعوها لاستمرار العيش فى عش كئيب .

وهو فى كآبته مثل الإيدز فى تمكنه . ينقل العدوى ولا شفاء .

ولقد صارت مثله كئيبة .. ولعلها مملة .

غير أن كآبته وراثية فيما يبدو . أخذها أبًا عن جد ، لذلك حق له أن يعدها من مفاخر الأسرة وتراثها الكبير .

راقبت حياتهما معًا لسنوات طويلة ، فهما جيرانى . فعلت ذلك بفضول الخطيب والزوج السابق .

رحت أرصد كل انفعال فى حياتهما المشتركة ، ليس من ثقب الباب كما يصنع الجواسيس السذج ، بل من قراءة متأنية مستمتعة لـ «نصوص» وجهها ووجهه . العلاقات انتهت بالطبع فى الوقت الحاضر . لم تعد سوى ذكرى بعيدة، غامضة التفاصيل وإن مكث منها فى القلب أنها خطيبتى السابقة بل زوجتى التى لم أدخل بها ، على وجه الدقة . أول امرأة أحببتها وربطت مصيرى وحياتى بكلمة منها .

ظاهر الوجوه يقول إن القلوب لم تعد الجمرة المتلظية . وإنما ارتدت إلى وظيفتها الحيوية التقليدية وهى ضخ الدم المؤكسد لكل أطراف الجسم ، وظاهر الوجوه يقطع بأننى حريص على ألا أجرح «الاتفاق» القديم الصامت بينى وبينها وبين زوجها ، اتفاق أقرب إلى الصفقة !

صارت صباح الخير الخاطفة المتعجلة الملمومة المضغومة أحيانًا ، على السلم وفى انعطافاته الضيقة ، المظلمة ، أو أمام المصعد الخشبى اللاهث ، هى كل ما ورثته من العلاقة القديمة وهى - فى النهاية - واجب اجتماعى تفرضه روابط الجيرة .

كان لها وجه مستدير ، فيه عينان مستديرتان ، فيهما ضوء وجذب ، أما الأنف فحوار مفتوح فى لباقة يتوسط صفحة الوجه ما بين العينين حتى يطل بشموخ وأنفة على شفتين مدثرتين بشهوة الحياة ، مزمومتين على سر .

فى حركة يديها السريعة ، وفى لفتة العنق ، وفى ابتسامة التقاطيع الدقيقة ، كنت أرى شقاوة روحها ، وكنت أقول فى نفسى «هى روح مقتبسة من لطف الأطفال» .

غير أنها تزوجت بالكئيب الممل .

فضله أهلها على وعلى أهلى وفقرى .

لما ظهر عزه وخيره ، ودينارانه ودولاراته .

لما دخل عليهم واثقًا . راسخًا ، بيده الحقيبة الحمراء مرة والسوداء ثانية والصفراء ثالثة .

لما أطاحت الهدايا بالصواب والرشاد .

لما أدار رؤوسهم - ورأسها هى بالذات .. يا للعجب - بكلمة «حاضر . حالًا» . بعد أن رفعت أنا ضغط دمهم لسنوات بكلمة «ربنا يسهل . دخلت جمعية بمائة جنيه مع زملائى . سأقبضها الشهر بعد القادم» .

لما صرت أنا الملل وأنا الضجر وأنا العدم واللارجاء واللاحل ، صار زواجها به هو الحل وهو منطق الأمور ، ومن يناهض منطق الأمور فليس إلا أحمق مخبولًا .

لم يروا فيه ما رأيته أنا وقتها .

ذوقه الفج المتدنى . فالألوان تتقاتل فى الجاكت والقميص والبنطلون . أما الحذاء الأصفر فى أحمر فكان ممسوحًا بتراب الشارع .

لم يروا فيه أخطر صفاته على الإطلاق . فلقد كان شخصية مقتضبة . قليل الكلام . قليله إلى حد تتخيل معه أنه خرج إلى الحياة بكلمة حاضر أو نعم أو حالًا . أو لا فى حالات نادرة .

تعجب كيف كان هذا الآدمى يتعامل مع الناس فى الغربة . كيف كان ينطق وبماذا كان ينطق وهل بنى علاقات صداقة أو حتى عداوة ؟! وتتخيل أنه كان دائمًا مجرد نقطة على السطر

أو فى نهاية الجملة أو فى بدايتها . نقطة تقفل ما بعدها ولا تهيئ لاسترسال . إنما تقطع بنفاذ كل المعانى . من أجل هذا تصورتها معه فى حالة بحث دائم عن مفاتيح للاستنطاق . لكى يتكلم الرجل الذى له لسان والذى به مراكز لتنطق فى المخيخ لكنه لا يتكلم سوى بـ«حاضر» أو «نعم» أو «حالا» أو «لا» فى حالات نادرة .

(٣)

بلغت المفارقة ذروتها بأن قالت لى بهدوء ليس من طبعها الذى أحفظه ، وهى تودعنى على باب شقتنا وأمى واقفة فى ذهول تدعوها للدخول : دبلتك ! وبالمناسبة سأحاول أن أوسطه فى عقد عمل تحل به مشكلة أخواتك البنات ؛ المهم تطلقنى !

الحق أن مشاعرى الحقيقية .. الحقيقية التى تبينتها وأنا فى الطائرة أعبر البحر الأحمر شرقًا ، إلى مساحات شاسعة من الصفرة والغربة ، هى توازن أحاسيسى بين خروج الدبلة من أصبعى وبين دخولى نعمة النفط !

ولقد قطعت فيما بعد بأن عقلها الصغير لا يرقى إلى هذه الدرجة من التعقيد ، وأن صاحب الفكرة «الرائق» هو ـ صاحبها !

وبتوجيه منه سافرت ، وفى قلبى امتنان له وسخط عليه ، بمقدار واحد من الشدة أو البرود . ألحقنى بالشركة ذاتها التى

عمل فى ضبط حساباتها وأموالها . وهناك سمعت عنه ما لم يشف غضبى أو يعمقه على السواء . فلقد تبين لى أنه خرج من الشركة لم يترك فيها أثرًا يذكر ، فلا معركة خاض . ولا حبًا أقام ، ولا حنقًا أو حقدًا حفر ، لا شىء بالمرة . كان يؤدى عمله فى هدوء وفى صمت وفى أدب وفى دقة . لم يحدث مرة أن أشعر رؤساءه أو أصحاب العمل أنه العامل الوحيد أو أنه صاحب المهارة التى دونها مهارات الغير . أبدًا ظل يعمل حتى أنهى عقده عشر سنوات كاملة . فلما أنهاها لم يشعر أحد قط أنه كان بدأها أو أنه كان هنا .

ولعل العبارة الوحيدة التى سمعتها عنه ، هى ما قاله لى مصرى آخر بلهجة خاطفة ، ونحن على العشاء أمام قصعة أرز باللحم ، قال لى «كان فى حاله . لا يتكلم ولا يكلم» .

(٤)

فعلت مثله .

أمضيت عشر سنوات . صنعت ثروة ، اشتريت شقة . حرصت على أن تكون بالعمارة ذاتها التى فيها زوجتى وزوجها ! النقود التى أخذها منى السمسار حققت لى طموحى . هاجس طاغ جعل ذلك حلمى . أن أرى الاثنين . أن أراه هو بعد أن صرنا على قدم المساواة . بل لعلى أكثر منه مالًا .

قابلتها بمدخل العمارة ذات يوم بعد أن نقلت إليها أثاثى الجديد ، فأسرعت مهرولة نافرة ، لا تريد لوجهينا لقاء .

لاحظت بعد ذلك أنها حرصت على ألّا تمضى وحدها ، أو تغادر شقتها التى عرفت أنها بالطابق العاشر إلا قليلًا وللشديد القوى .

لاحظت أنها أيضًا بقايا المرأة التى أحببتها وخطبتها وعقدت عليها . مجرد خطوط عريضة ـ عريضة جدًا للحق ـ للوجه والجسم والروح التى أحببت .

وبدا عليها أنها صاحبة عيال فى الواقع ، برغم أنها لم تنجب منه .

روحها مرهقة .

فى مرة نادرة سألتنى :

ـ تزوجت .؟

بنفس الهمس قلت :

ـ لا .

ابتسمت كل عضلات وجهها ، وبدت عليها راحة استغربتها .

(٥)

كل مهمتى فى الحياة الآن . وظيفتى المستديمة . رسالتى الأبدية أن أراقب وأسجل سيرة حياة وتطورات المرأة التى كانت ستكون زوجتى وأمًا لأولادى . هل كانت اختيارًا سليمًا . هل استحقت حبى وولعى ؟ هل كانت مجرد عقد عمل مستتر ؟!

وبإحساس خفى أيقنت أنها تراقبنى هى الأخرى .

(٦)

فى الصباح الباكر جدًا .. يوم خميس . بعد ستة أشهر . رن جرس الباب . نهضت متثاقلًا أنفخ وأهمهم . فتحت فإذا بها هى !

مع فنجان القهوة على غيار ريق ، عرفت منها أنها مقيمة مع الكآبة إذا تجسدت . بدموعها وصوتها المختنق قالت لى إنها تود لو تشتمنى لأننى طاوعتها وفرطت فيها وطلقتها . وقالت لى :

ـ بعتنى بعقد العمل !

ـ اشتريت حريتك بعقد عمل !

ـ حسبتها الحرية لكنها الجهامة والظلمة والعقم . رجل عقيم الكلام عقيم العيال !!

ـ إنه زوجك . تذكرى أنه زوجك !

ـ هل تذكر يوم قلت لى محذرًا إنه شخصية مقتضبة . فعلًا هو آدمى مختصر مقتضب . موجز . فى كل شىء موجز . حياته بضع كلمات . آكل . أنام . أشرب . . أستحم . أعمل . أنام . أنام . أنام . أنام . أنام !!

أفكاره ـ إن فكر ـ سوداء . أخباره ـ إن أتى بخبر ـ سوداء . إن سألته رد بهمهمة أو غمغمة . لا توجد بيننا عبارات واضحة . لا توجد ألفاظ . كل حوارنا إيماءات . إشارات . ختامات لمعان لم تخرج للنور كأنى تزوجت بأبكم . قليل الرغبة فى العمل . رمى فلوسه فى شركة توظيف أموال واعتمد على الأرباح ، وهى الفلوس طارت . فضاعف ذلك من ضمته حتى خيل إلى أنه جثة خارج قبرها !

بح صوتى من مطالبته بنظافة ملابسه ـ الداخلية خصوصًا ـ لا تؤاخذنى !

بح صوتى من كلمة إحلق ذقنك أو أرسلها . فهى ليست سوى شوك متناثر على خديه بشكل مقرف .

ـ ترينه الآن مقرفًا إذ ضاعت نقوده !

ـ كان يعوضنى عنها بكلمة حب واضحة الحرفين . لو فعل لما طهقت .

ـ نقوده كانت تصبّرك .

ـ أنستنى فى الواقع أهمية الحب والحوار .

التفت إليها فى لحظة فجائية وقلت لها بصوت ليس لى :

ـ سيدتى .. ماذا تفعلين فى شقة رجل غريب فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ؟!

مستغربة أخذت تلم أطرافها ، وتتهيأ للانصراف وخجل يحتويها ، وعند الباب قلت لها :

ـ إنك فى الواقع تستحقينه !

ـ ١٩٩١ ـ

فهـرس الكتاب

الموضـــوع	الصفحة
الإهـداء	٤
قبـل أن تقـرأ	٥
أول الشهـر	٩
حفلة مـوت	٢٣
الدكتاتور	٣٥
فـلّ .. وعشـرة	٤٥
نـو .. بروبلم	٥٩
نـوم العـازب	٦٩
المخبر السـرى	٨٩
تحت قدميها	٩٩
اللحظـة	١٠٥
أوقفـوا الأرض .. أريـد أن أنزل	١١٣
المسكونة	١٣٩
الجبَّـار	١٤٩
الحـذاء الملـوّن	١٥٥
زهـرة الحـب	١٦٧
النـــاقص	١٧٥
مـاشى الحـال	١٨٧
نـوع من الحـب	١٩٩
المُمِـلّ	٢٠٩

أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

محمد حسن الألفي

نوم العازب

«« سلام يا امرأة . سلام يا جفاف . يا موات
يا عمرًا قديمًا وبطاريات مالحة ، سلام .
كل ما تريدين هو السلام . والذي يطير هوائي
إمراك على أننا أخوان . لا لسنا بأخوين ،
وتحتجين بالله ، والله يا امرأة لا يأمر بذبول
رجل حتى لو كان بعد الستين .
إنه ورأس أبي عمل معمول بحذق . لعلني مربوط
على ذيل قرموط ، أو لعلني ممسوك ، أو ميت
لبثت فيه بعض الروح .
لكن من المؤكد أنني رجل ناقص .. »»

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع